رِسَالَةٌ
أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ

صاحب الرسالة
فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح بن محمد العثيمين
الوهيبي التميمي

قال تعالى

{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]

ضبط الرسالة وعلق عليها
أَبُو عُمَرَ/ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ نَبِيلِ بْنِ مُحَمَّدِ شَمْسِ الدِّينِ

دار التوحيد

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار التوحيد

شِبِينُ الكَوْمِ - الْمَنُوفِيَّةِ - مصر

هاتف واتس فقط: ٠١٠٠٦٢٦٦٢٧٨

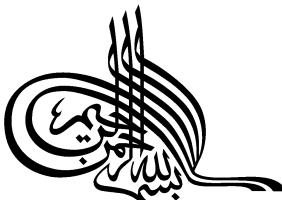
بسم الله الرحمن الرحيم

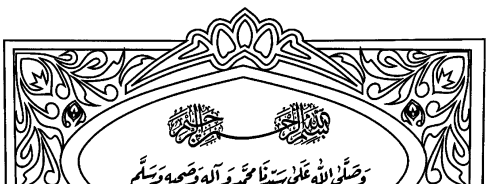

المُقدِّمَةُ

الحمدُ للهِ الذي أنشأَ وبَرَا، وخلقَ الماءَ والثَّرى، وأبْدَعَ كلَّ شَيْءٍ وذَرَا، لا يَغيب عن بصرِه صغيرُ النَّمْلِ في الليل إذَا سَرى، ولا يَعْزُبُ عن علمه مثقالُ ذرةٍ في الأرض ولاَ في السَّماء، وأنْزلَ الكتابَ على محمد فيه البيِّناتُ والهُدَى، أحْمَدُه على نعمه التي لا تَزَالُ تَتْرَى، وأصلِّي وأسلِّم على نبيِّه محمدٍ المبْعُوثِ في أُمِ القُرَى، صلَّى اللهُ عليه وعلى صاحِبِهِ في الغارِ أبي بكرٍ بلا مِرَا، وعلى عُمَرَ الْمُلْهَمِ في رأيه فهُو بنُورِ اللهِ يَرَى، وعلى عثمانَ زوجِ ابْنَتَيْهِ ما كان حديثاً يُفْتَرَى، وعلى ابن عمِّهِ عليٍّ بَحرِ العلومِ وأسَدِ الشَّرى، وعلى بَقيَةِ آله وأصحابِه الذين انتَشَرَ فضلُهُمْ في الوَرَى، وسلَّمَ تسليماً، وبعد:

فأهمية علم أصول التفسير من أهمية علم التفسير نفسه، لأن أصول التفسير بالنسبة للتفسير بمثابة الوسائل للغايات، فهو له كعلم النحو للغة العربية وكأصول الفقه للفقه، وكأصول الحديث للحديث، ...

فأصول التفسير تضبط فهمنا -لكتاب الله عز وجل- من الزلل أو الشطط، وبها نعرف عموم الآيات وخصوصها، ومحكمها ومتشابهها .. وغير ذلك، وعلى هذا فأصول التفسير واحد من أجل علوم القرآن.

ومن الرسائل السهلة التي صنفت في هذا العلم رسالة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- المسماة بـ "أصول في التفسير"، وقد قمت -بفضل الله تعالى- بالتعليق عليها، مستهلا هذه التعليقات بثلاث مسائل:

المسألة الأولى: خمس كلمات (قراءة، حفظا، فهما، تدبرا، وعملا)

المسألة الثانية: مقدمة في أصول التفسير.

المسألة الثالثة: التعريف بمؤلف الرسالة.

وقد جعلت هذا التعليق على صورتين، صورة مختصرة وصورة مطولة نوعا ما، وهذا هو التعليق المختصر، وكانت البداية في هذه التعليقات، ليلة الأربعاء الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، الخامس من شهر شوال سنة ثنتين وثلاثين بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية، الموافق الثالث من شهر سبتمبر سنة إحدى عشرة بعد الألفين.

وألفت النظر إلى:

- أنني أعتمد تصحيح وتضعيف الشيخ الألباني -رحمه الله- للأحاديث، وإن تمت مخالفة فأبين ذلك -بحول الله وقوته-

- وأنه ليس لي من ذلك إلا النقل والجمع ممن شرح قبل ومن غيرهم.

وإليكم رابط شرح الكتاب على اليوتيوب

https://www.youtube.com/playlist?list=PLJUXZilZ8fUWo_AKJQiKETwTfM8E316gP

هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يقبل مني هذا العمل، وإن كنت قد أصبت فيما فعلت -وهذا ما أرجوه- فهو من توفيق الله لي، وإن كان غير ذلك - وهو من لوازم البشر - فهو تقصيري وجهلي

ضبط وتعليق

أَبِي عُمَرَ/ أَحْمَد بْن مُحَمَّدِ نَبِيلِ بْنِ مُحَمَّدِ شَمْسِ الدِّينِ

شِبِينُ الكَوْمِ – الْمَنُوفِيَّةِ – مصر

المسألة الأولى: خمس كلمات (قراءة، حفظا، فهما، تدبرا، وعملا)

كان من دعاء النبي ﷺ: "أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي" أي: يحيي قلبي كما تحيا الأرض بالمطر أو بالماء حين يترل عليها، فهل تعرض قلبك لهذا القرآن يوميا لتحيي قلبك، فالزرع يحتاج كل يوم إلى ماء يتعاطاه بجرعات منتظمة، وبطريقة محددة حتى ينبت مع مرور الزمن.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ (إن كان يحب المرء القرآن، فإنه يحب الله ورسوله، وإن كان يبغض القرآن، فهو يبغض الله ورسوله) وصدق ﷺ في هذا، فإذا أردت أن تعرف قدر الله عندك وبالعكس قدرك عند الله سبحانه وتعالى، فانظر إلى قدر القرآن العظيم عندك هل تحبه وتتعلق به؟ هل تلازمه وتتلوه؟ هل تفرح بهذا القرآن أم لا؟

كلمات موجزات سريعات في ما ينبغي علينا تجاه كتاب الله تعالى

الكلمة الأولى: اقرءوا القرآن، فإنه يأتي شفيعا لأصحابه يوم القيامة

في صحيح مسلم، قال أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ" الأمر في قوله ﷺ: (اقرؤوا القرآن) يدل على مطلق القراءة، سواء كانت تلك القراءة من المصحف، أو كانت عن ظهر قلب (حفظاً) والمقصود من ذلك مداومة القراءة وملازمة ذلك، ويدل لهذا قوله: (لأصحابه) فالصاحب هو الملازم.

قال ابن عباس ﷺ: "ضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقي في الآخرة، ثم تلا: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: ١٢٣] قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} [فاطر: ٢٩]

قال عطاء: "يأتي على الناس زمان يكثرون فيه من الأحاديث ويبقى المصحف معلقا يقع عليه الغبار"، من أعظم ما يتقرب به العبد هو تلاوة القرآن..

الغبطة على هذه النعمة: في الصحيحين، قَالَ عَبْد اللهِ بْن عُمَرَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ، فَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَتَصَدَّقَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ "

من يتعذر بأنه لا يجد الوقت، فليجعل هذه العبارة نصب عينيك "مازاحم القرآن شيئا إلا باركهُ، فإذا هجرتهُ هجرتْ البركة حياتك"

***

الكلمة الثانية: احفظ القرآن تحفظ

من أعجب الأشياء أن يدعي أحد العلم وهو لا يتقن قراءة القرآن ولا يحفظه، وقد قال ربنا تعالى {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: ٤٩] فمن لم يكن القرآن في صدره فليس من أهل العلم ولو حفظ ألف كتاب آخر!

لقد بلغ النبي ﷺ من حرصه على القرآن وحفظه، أنه كان يحرك لسانه به في أشد حالات حرجة شديدة، وهو يعاني من الوحي وسطوته، وجبريل في هبوطه عليه بقوته، يفعل الرسول ﷺ كل ذلك استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه مخافة أن تفوته كلمة أو يفلت منه حرف، وما زال رسول الله ﷺ كذلك

حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه في صدره {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٦-١٩] (مناهل العرفان ٢٤١/١)

وروى الترمذي وأبو داود، عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يُقَالُ - يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ -: "اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا" والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨١/٥) برقم ٢٢٤٠، وقال بعده: (واعلم أن المراد بقوله: "صاحب القرآن" حافظه عن ظهر قلب على حد قوله ﷺ: "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله" أي أحفظهم، فالتفاضل في درجات الجنة إنما هو على حسب الحفظ في الدنيا، وليس على حسب قراءته يومئذ واستكثاره منها كما توهم بعضهم، ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن، لكن بشرط أن يكون حفظه لوجه الله تبارك وتعالى، وليس للدنيا والدرهم والدينار، وإلا فقد قال ﷺ: "أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا") انتهى

وجاء في فضل حافظ القرآن: ما رواه البخاري، عن عائشة عن النبي ﷺ قال «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»

***

الكلمة الثالثة: فهم القرآن هو الحياة

لقد ظن بعضنا أن مفهوم الانشغال بالقرآن هو الانشغال بحفظه ومراجعة حروفه فقط دون التفقه فيه وفهم مراد الله منه.. إن الانشغال الحقيقي بالقرآن يعني أول ما يعني الانشغال بمعانيه ومواعظه وجوانب هدايته وامتلاء القلب بها

وتمكنها من العقل الباطن واللاشعور فينعكس ذلك علي خواطر العبد واهتماماته.

يقول ابن عمر ﷺ (لقد عشنا دهراً طويلاً وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها.. ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما آمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل).

فهم القرآن حق فهمه سبب لوجود الألفة، واجتماع القلوب، وزوال الخلاف المذموم، الذي ينشأ عنه الافتراق والاقتتال، وعدم فهمه سبب لوجود الخلاف والشقاق؛ ذكر الشاطبي في الموافقات (١٤٨/٤) "عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ؛ قَالَ: "خَلَا عُمَرُ ذَاتَ يَوْمٍ؛ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ؟ فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ؛ فَقَالَ: كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ؟ فَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ فقرأناه، وعلمنا فيما نَزَلَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ ولا يدرون فيما نَزَلَ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ، فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ اخْتَلَفُوا، فَإِذَا اخْتَلَفُوا اقْتَتَلُوا، قَالَ: فَزَجَرَهُ عُمَرُ وَانْتَهَرَهُ؛ فَانْصَرَفَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَنَظَرَ عُمَرُ فِيمَا قَالَ؛ فَعَرَفَهُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ مَا قُلْتَ، فَأَعَادَهُ عَلَيْهِ؛ فعرف عمر قوله وأعجبه"

عدم فهم القرآن معناه زوال العلم وارتفاعه:

في سنن الترمذي، عن أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ (هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنْ النَّاسِ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ) فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا

الْقُرْآنَ؟! فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ (نُكَلِّثُكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!)

***

الكلمة الرابعة: التدبر بوابة العمل

ففي مشهد من أَجَلِّ مَشَاهِدِ النبوة، لم يزل رسولُ الله ﷺ يبكي في صلاته من تدبره وتفكره؛ إِذْ أَرَاهُ اللهُ من أسرار مَلَكُوتِهِ ما أَرَاهُ؛ حتى بكت الأرض ببكائه ﷺ!.. فقد سَأَلَ عَبْيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عائشةَ ﷺ، قَالَ: "أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ! قالَ: فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ ﷺ (يَا عَائِشَةُ! ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي!) قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ، وأُحِبُّ مَا سَرَّكَ.. قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ! فَجَاءَ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ (قَالَ: أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا! {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] وقد ورد التدبر والتفكر ههنا بمعنى واحد، فقوله ﷺ (**وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا!**) هو بمعنى: لم "يتدبرها" لأن تدبرها مُفْضٍ بالضرورة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض؛ ولذلك عبر هنا بالتفكر.

وأما وعيده ﷺ للممتنع عن التفكر بالويل؛ فهو دليل قوي على وجوب التفكر والتدبر –إجمالاً– على جميع الناس! سواء منهم العالم والعامي، كُلٌّ على ما يسر الله له.. فتأمل!

عمر بن الخطاب ﷺ: عاشَ عمر ﷺ مع القرآن، فكانت زواجر القرآن تقرع قلبه، ومواعظ القرآن تمزه هزا حتى أنه خرج ليلةً فسمع {وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } [الطور: ١ – ٧] فقال: "قسمٌ وربِّ الكعبة حق" فمرض شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه، تخيلوا لما تكون آية واحدة سمعها وهي تتلى لم يقرأها، إنما سمعها، أقعدته شهرا كاملا، متى قرأت زاجرة من زواجر القرآن، أو موعظة، فجلست طيلة يومك تتأمل فيها وتأخذك؟!

***

الكلمة الخامسة: هدف القرآن العمل

من أهم العقبات في طريق الانتفاع بالقرآن نسيان الهدف الذي من أجله نزل القرآن:

إن الإنسان هو موضوع القرآن... بمعنى أن الهدف الأسمى لنزول القرآن هو هداية الإنسان وإصلاحه والسير به في الطريق المؤدي إلى رضا الله وجنته..

ومن أجل تحقيق هذا الهدف جعلها الله رسالة موجزة مقارنة بما تحتويه من معان عظيمة ليسهل حملها وقراءتها وحفظها، ولأن الإنسان من طبيعته النسيان وكذلك لتعرضه المستمر للمغريات والملهيات خلال يومه وليلته كان من الأهمية بمكان أن يداوم على قراءة القرآن لتحدث له دوام التذكرة والتبصرة وليُعوِّض بالقرآن ما فقده من إيمان وليس ذلك فحسب بل وليمد

قلبه بالروح التي تجعله دومًا في إقبال على الله... من هنا كانت التوجيهات النبوية المتعددة بكثرة تلاوة القرآن وتعاهده كل يوم وحتى لا تمل النفس كان رصد الجوائز والأجر العظيم لكل من قرأ حرفًا من القرآن ليستمر الحافز والدافع لديها للقراءة... كل ذلك ليتحقق المقصود من اللقاء بالقرآن.

إذن فكثرة قراءة القرآن وتعلم أحكام تلاوته وترتيله وحفظ آياته وتدبره وقراءته بصوت مسموع وحزين.. كل هذه وسائل لتحقيق الهدف.

لكن ماذا يحدث لو نُسى الهدف؟!

إذا ما نُسى الهدف من نزول القرآن وبالتالي لم يحدث ربط الوسائل بهذا الهدف فمن المتوقع أن يتعامل الكثير مع النصوص الواردة في فضل وأهمية «الوسائل» (كفضل القراءة والترتيل والحفظ وقراءة الليل..) على أنها غايات وأهداف.

فيُصبح هم المرء حفظ القرآن كهدف ومن ثم لا يُعطي اهتمامًا يُذكر للقراءة المتأنية الواعية المدركة لمعاني الآيات فضلاً عن التأثر بها وينصرف الهم كذلك إلى تحصيل أكبر قدر من الحسنات من خلال القراءة السريعة وينصرف الهم أيضًا إلى استغراق الأوقات في تعلم أحكام الترتيل والتعمق فيها والتشديد على المتعلمين في أمور قد لا تكون أساسية في الترتيل، كل ذلك وغيره من المتوقع أن يحدث لو نُسى الهدف من نزول القرآن

والله يا إخوة: أقولها بلسان محبٍ ناصحٍ:

لا تغادر دنياك قبل أن تذوق أطيب ما فيها؛ العيشَ مع كتاب الله تعالى

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، ودليلنا وقائدنا إلى جناتك جنات النعيم يا أرحم الراحمين.

المسألة الثانية

مقدمة في أصول التفسير

إن لكل علم قبل أن ندخل فيه مبادئ ومقدمات ينبغي على الدارسين أن يطلعوا عليها لتظهر حقيقة هذا العلم الذي يدرسونه، وهذه المقدمات هي:

أولا: تعريف أصول التفسير

(أصول التفسير) مركب إضافي، لابد عند تعريفه من تعريف المضاف على حده، ثم يُعرّف المضاف إليه، ثم يعرف العلم بإضافة أحد اللفظين إلى الآخر.

(١) **باعتبار مفرديه**: أي: باعتبار كلمة أصول، وكلمة تفسير

تعريف الأصول:

في اللغة: جمع أصل، وهو في اللغة: ما يبنى عليه غيره، ويطلق على منشأ الشيء، قال تعالى {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: ٢٤] ففارق بين الأصل والفرع.

وفي الاصطلاح: أطلق لفظ الأصل على عدة معان، أهمها ما يلي:

أ- الدليل: كما يقول الفقهاء: الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة والإجماع، أي: الدليل عليها.

ب- القاعدة المستمرة: كما يقول الأصوليون: الأصل أن الخاص مقدم على العام عند التعارض، وكما يقول النحاة: الأصل في المبتدأ التقديم وفي الخبر التأخير.

ج- المقيس عليه، كما يقول الأصوليون في باب القياس: أركان القياس أربعة: الأصل، والفرع، والعلة، والحكم.

التفسير:

لغة: من كلمة فَسَرَ، فتقول فسر الرجل عن ذراعه أي كشفه، معناها: الكشف والإيضاح والبيان، ومن ذلك: قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان: ٣٣] أي بياناً وتفصيلا

وفي الاصطلاح: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وذلك ببيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.

(٢) باعتباره لقبا: "هو العلم الذي يعنى بالقواعد والأصول التي يبنى عليها علم التفسير" ويدخل في هذا العلم: طرق التفسير، والإجماع في التفسير، والاختلاف فيه وأسباب الاختلاف، وكيفية التعامل مع الاختلاف في التفسير والترجيح بين أقوال المفسرين والقواعد التي يعتمد عليها في الترجيح، وأصول الرد على الخطأ أو الانحراف في التفسير، ومشكلات كتب التفسير كالمرويات في التفسير وأسانيدها، الإسرائيليات، مصطلحات المفسرين، ونحو هذه المسائل التي تؤثر في فهم القرآن.

والتأليف في هذا العلم لم تتبلور بشكل متكامل إلا في العصر الحديث، وإن كانت أفراد مسائله متوفرة في تطبيقات المفسرين في كتبهم وتفسيراتهم منذ عهد النبي ﷺ حتى استقرار تلك الأصول والقواعد في عهد السلف.

***

ثانيا: الأحوال التي مرَّ بها هذا العلم [١]

عهد ما قبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ما عرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد، ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون

١- نقلا من: مناهل العرفان للزرقاني ت ١٣٦٧هـ (١/ ٢٨).

مدونة ولم تجمع في كتب مؤلفة لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف.

أما الرسول ﷺ فلأنه كان يتلقى الوحي عن الله وحده، والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ليجمعنه له في صدره وليطلقن لسانه بقراءته وترتيله وليميطن له اللثام عن معانيه وأسراره، اقرأ إن شئت قوله سبحانه: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٦ - ١٩] ثم بلغ الرسول ﷺ ما أنزل عليه لأصحابه وقرأه على الناس على مكث أي على مهل وتؤدة ليحسنوا أخذه ويحفظوا لفظه ويفهموا سره، ثم شرح الرسول ﷺ لهم القرآن بقوله وبعمله وبتقريره وبخلقه أي بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته مصداقا لقوله سبحانه {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤]

ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عربا خلصا متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوة في الحافظة وذكاء في القريحة وتذوق للبيان وتقدير للأساليب ووزن لما يسمعون بأدق المعايير حتى أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم ما لا نستطيع نحن أن ندركه مع رحمة العلوم وكثرة الفنون.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مع هذه الخصائص أمين وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم، والرسول ﷺ **نهاهم أن يكتبوا عنه شيئا غير القرآن**، وقال لهم أول العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: "لا تكتبوا عني، ومن كتب غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني فلا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"

وذلك مخافة أن يلتبس القرآن بغيره أو يختلط بالقرآن ما ليس منه ما دام الوحي نازلا بالقرآن.

فلتلك الأسباب المتضافرة لم تكتب علوم القرآن كما لم يكتب الحديث الشريف، ومضى الرعيل الأول على ذلك في عهد الشيخين أبي بكر وعمر، ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام وتعاليمه والقرآن وعلومه والسنة وتحريرها تلقينا لا تدوينا ومشافهة لا كتابة.

عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

ثم جاءت خلافة عثمان ﷺ وقد اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب الفاتحون بالأمم التي لا تعرف العربية وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاف بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمام فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير، لهذا أمر ﷺ أن يجمع القرآن في مصحف إمام وأن تنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام وأن يحرق الناس كل ما عداها ولا يعتمدوا سواها، كما يأتيك تفصيله في مبحث جمع القرآن وكتابته.

وبهذا العمل وضع عثمان ﷺ **الأساس لما نسميه علم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني**

ثم جاء علي ﷺ فلاحظ العجمة تحيف على اللغة العربية وسمع ما أوجس منه خيفة على لسان العرب فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل وخط له الخطط وشرع له المنهج.

وبذلك يمكننا أن نعتبر أن عليا ﷺ **قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو ويتبعه علم إعراب القرآن، على الخلاف في هذه الرواية.**

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة، وجاء عهد بني أمية وهمة مشاهير الصحابة والتابعين متجهة إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين، ولكن هذه الهمة في هذا النشر يصح أن نعتبرها تمهيدا لتدوينها

وعلى رأس من ضرب بسهم وفير في هذه الرواية: الأربعة الخلفاء وابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم.

وعلى رأس التابعين في تلك الرواية: مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم بالمدينة وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن ومالك بن أنس من تابعي التابعين رضي الله عنهم أجمعين، وهؤلاء جميعا يعتبرون أنهم واضعو الأساس لما يسمى علم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم غريب القرآن ونحو ذلك...

عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافي

ثم جاء عصر التدوين فألفت كتب في أنواع علوم القرآن:

- واتجهت الهمم قبل كل شيء إلى التفسير باعتباره أم العلوم القرآنية لما فيه من التعرض لها في كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز، ومن أوائل الكاتبين في التفسير: شعبة بن الحجاج وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وتفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين، وهم من علماء القرن الثاني.

- ثم تلاهم ابن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ وكتابه أجل التفاسير وأعظمها لأنه أول من عرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض كما عرض للإعراب والاستنباط.

وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا هذا حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب والموجز والمطول والمتوسط، ومنها التفسير بالمعقول

والتفسير بالمأثور ومنها تفسير القرآن كله وتفسير جزء وتفسير سورة وتفسير آية وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك.

أما علوم القرآن الأخرى ففي مقدمة المؤلفين فيها:

- علي بن المديني شيخ البخاري إذ ألف في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام إذ كتب في الناسخ والمنسوخ وكلاهما من علماء القرن الثالث.

- وفي مقدمة من ألف في غريب القرآن أبو بكر السجستاني وهو من علماء القرن الرابع.

- وفي طليعة من صنف في إعراب القرآن علي بن سعيد الحوفي وهو من علماء القرن الخامس.

- ومن أوائل من كتب في مبهمات القرآن: أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسبيلي وهو من علماء القرن السادس.

- كذلك تصدر للتأليف في مجاز القرآن ابن عبد السلام، وفي القراءات علم الدين السخاوي وهما من علماء القرن السابع.

وهكذا قويت العزائم وتبارت الهمم ونشأت علوم جديدة للقرآن، وظهرت مؤلفات في كل نوع منها سواء في ذلك أقسام القرآن وأمثال القرآن وحجج القرآن وبدائع القرآن ورسم القرآن وما أشبهها مما يروعك تصوره بله الاطلاع عليه ومما يملأ خزائن كاملة من أعظم المكتبات في العالم.

أول عهد لظهور هذا الاصطلاح

ظفرت في دار الكتب المصرية بكتاب لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ اسمه البرهان في علوم القرآن، وهو يقع في ثلاثين مجلدا والموجود منه الآن خمسة عشر مجلدا غير مرتبة ولا متعاقبة من نسخة مخطوطة.

ثم جاء القرن السادس، فألف فيه ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هـ كتابين: أحدهما: اسمه فنون الأفنان في علوم القرآن، والثاني اسمه المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن.

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي المتوفي سنة ٦٤١ هـ كتابا سماه جمال القراء، وألف أبو شامة المتوفي سنة ٦٦٥ هـ كتابا أسماه المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز وهما كما قال السيوطي عبارة عن طائفة يسيرة ونبذ قصيرة بالنسبة للمؤلفات التي ألفت بعد ذلك في هذا النوع.

ثم أهل القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزركشي المتوفي سنة ٧٩٤ هـ كتابا سماه "البرهان في علوم القرآن"

ثم طلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة فدرج فيه وترعرع إذ ألف محمد بن سليمان الكافيجي المتوفي سنة ٨٧٣ هـ كتابا يقول السيوطي عنه: إنه لم يسبق إليه اهـ.

وفي هذا القرن أيضا وضع جلال الدين البلقيني كتابا سماه "مواقع العلوم من مواقع النجوم"

وفي هذا القرن التاسع أيضا ألف السيوطي كتابا سماه "التحبير في علوم التفسير" ضمنه ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته بنقلها، غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح إلى التبحر والتوسع والترتيب فوضع كتابه الثاني كتاب "الإتقان في علوم القرآن" وهو عمدة الباحثين والكاتبين في هذا الفن.

وتوفي السيوطي رحمه الله سنة ٩١١ هـ في مفتتح القرن العاشر وكأن نهايته كانت نهاية لنهضة التأليف في علوم القرآن عليه سحائب الرحمة والرضوان.

***

ثالثا: استمداد هذا العلم

من كلام الله ومن كلام الرسول ﷺ ومن كلام الصحابة والتابعين، وكل القواعد التي ستمر علينا هي مستمدة من هذه الأصول والموضوعات.

***

رابعا: مسائل هذا العلم

هي المسائل التي تتعلق بالقرآن من جهة ما يبين معناه، كسبب النزول واختلاف أقاويل السلف في الآية والمطلق والمقيد والعام والخاص.

***

خامسا: فائدة أصول التفسير

١- التسلح بسلاح العلم والمعرفة للدفاع عن القرآن الكريم.

٢ - معرفة الطرق الصحيحة لتفسير القرآن الكريم وما يقبل منها وما يرد.

٣- معرفة القواعد التي تعين على فهم كتاب الله تعالى الفهم الصحيح.

٤- الاطلاع على الجهود العظيمة التي بذلها علماء السلف للمحافظة على القرآن الكريم لفظاً ومعنى.

***

سادسا: فضل هذا العلم ومكانته

لهذا العلم مكانة كبيرة وشرف العلم من شرف المعلوم وأصول التفسير تبحث في علم التفسير وموضوع هذا العلم هو القرآن الكريم وهو خير الكلام لأنه كلام الله تعالى، فلا عجب أن تكون علوم التفسير من أشرف العلوم أعلاها مكانة وأكثرها فضلاً.

***

سابعا: المؤلفات والمراجع في علم أصول التفسير

١- كتب مصدرة بهذا الاسم وهو أصول التفسير من أهم هذه المؤلفات:

أ- مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) وليس هذا الاسم من وضع شيخ الإسلام بل هي من وضع مفتي الحنابلة في دمشق جميل الشطي الذي طبع الكتاب سنة ١٣٥٥هـ، وقد نبه شيخ الإسلام في المقدمة على أن ما سيكتبه هو قواعد تعين على فهم القرآن وتفسيره وبيان معانيه.

ب- أصول التفسير للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين

ج- بحوث في أصول التفسير لفهد الرومي.

٢- مقدمات المفسرين التي يقدمون بها تفاسيرهم، كمقدمة القرطبي على سبيل المثال.

٣- كتب علوم القرآن تعتبر أصول التفسير جزءا من علوم القرآن لأن الباحث في كتب علوم القرآن سيظفر بمجموعة من مسائل هذا العلم

المسألة الثالثة

التعريف بمؤلف الرسالة

العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

(ت ١٥ شوال سنة ١٤٢١ هـ - ١١ يناير ٢٠٠١م) ١

اسمه: الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين الوهيبي التميمي، عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، وأستاذ بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وإمام وخطيب الجامع الكبير بمدينة عنيزة، وهو متزوج من امرأة واحدة، وله من الأولاد الذكور: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

مولده: ولد في مدينة عنيزة في ٢٧ رمضان عام ١٣٤٧ هـ، وعليه: فيكون الشيخ قد عمِّر (٧٤) عاماً.

علمه:

- حفظ الشيخ رحمه الله كتاب الله في سن مبكرة، وقبل أن يتجاوز الخامسة عشر من عمره كان يحفظ -بالإضافة إلى كتاب الله- "زاد المستقنع" و"ألفيَّة ابن مالك" - كما أخبر بذلك هو عن نفسه.

- وقد جدَّ الشيخ ونشط في طلب العلم على قلة ذات اليد في ذلك الزمان، وقد حدَّث عن نفسه فقال إنه كان لا يملك إلا "الروض المربع" يقرأ فيه، في غرفة من طين تطل على "زريبة بقر"!

١- كتبه: أبو طارق - إحسان بن محمد بن عايش العتيبي -إربد- بيت راس - ١٧ شوال ١٤٢١ هـ - ١٢ / ١ / ٢٠٠١ م

قال الألباني: «أنا الحقيقة معجب بسمت الشيخ ولطفه وأدبه إلى خروجه عن التقليد الذي ران على جماهير العلماء في كل البلاد ما استطاع إلى ذلك سبيلا، خلت الأرض من عالم وأصبحت لا أعرف منهم إلا أفراداً قليلين، أخص بالذكر منهم العلامة عبد العزيز بن باز والعلامة محمد بن صالح بن عثيمين»

تعليمه: عُرف عن الشيخ أسلوبه النادر في التعليم، فهو يوصل المعلومة بأسهل طريق إلى المتعلمين والسامعين، ولا يكاد يغيب ذهن الواحد من الجالسين في درسه حتى يوقفه الشيخ ليجيب على سؤال أو ليعيد آخر كلام قاله، وعرف عنه طريقة السؤال والجواب – لا السرد – وهي طريقة نافعة يترقب الطالب فيها كل لحظة أن يتوجه له سؤال، وهي طريقة تحيي المجلس وتجعل الطالب دائم التحضير والمتابعة.

ويعطي الشيخ رحمه الله الدرس حقَّه ومستحقه من الشرح والبيان ولا ينتقل بالطالب إلى موضوع جديد حتى يكون قد فهم ما مضى.

ويعيد على الطلبة في الدرس التالي –بطريقة السؤال والجواب– ما أُخذ في الدرس الماضي، وهكذا يتأهب الطالب لدرس اليوم، ويعيد قراءة ما سلف من الدروس الماضية.

تنظيمه للوقت: والشيخ رحمه الله يعد من نوادر العصر في هذا الأمر، فلو علمتَ مشاغله ومناصبه لقلتَ إن هذا يحتاج إلى ضعف وقت اليوم ليقوم بأعماله! فهو يؤم المصلين ويدرس في المسجد ويدرس في الجامعة ويخطب الجمعة، ويجيب على أسئلة الناس على الهاتف، ويلبي دعوة الناس في أفراحهم، ومناسباتهم، ويحضر في الرياض "اجتماع هيئة كبار العلماء" ويشرف على سكن الطلاب ويزورهم هناك ويجلس معهم، ويقوم بإلقاء المحاضرات على

الهاتف، ويجيب على أسئلة المراسلين له الكتابيَّة، ويسجِّل حلقات في الإذاعة، هذا عدا عن قيامه بواجب أهله، ومناصحته لأهل المسئولية وغيرهم.

وعن برنامجه اليومي قال ابنه إبراهيم: إن الوالد - رحمه الله - كان عادة ما يستيقظ قبل صلاة الفجر ويوتر ثم يصلي الفجر ويرجع إلى البيت ويرتاح قليلاً، ثم بعد ذلك يبدأ اليوم إذا كان عنده محاضرة استعد لها، وإلا جلس للكتابة والرد على مكالمات السائلين حتى وقت الظهر، ثم يذهب للمسجد لصلاة الظهر، ثم يرجع للبيت مرة ثانية لمكتبته حتى يحين وقت الغداء، وهي الفرصة التي يلتقي فيها بأبنائه! وحتى في هذه اللحظة يضع التليفون بالقرب منه لمباشرة الرد على الأسئلة، ثم بعد الغداء يجلس ويرد على التليفون ثم يذهب لصلاة العصر ويجلس بعدها بالمسجد قليلاً، حيث يلتقي غالباً ببعض أهل القضايا والحاجات، ثم يعود للبيت ويجلس بالمكتبة حتى صلاة المغرب، ثم يذهب لصلاة المغرب ليبدأ بعدها الدرس إلى العشاء، ثم بعد صلاة العشاء يعود للبيت، ودائماً ما يكون لديه برنامج بعد العشاء وحتى حوالي التاسعة والنصف إما خارج "عنيزة" أو عبر التليفون أي في بلدان المملكة أو أحيانا خارج المملكة في هولندا وألمانيا وكثير من الدول، فيكون على اتصال بالمراكز هناك، ويقوم بإلقاء محاضرة ربما امتدت لساعة عبر التليفون، ثم بعدها يجلس إلى القراءة حتى حوالي الحادية عشرة، هذا هو يومه العادي.أ.هـ

مؤلفاته: للشيخ رحمه الله شروح كثيرة لكتب عديدة - سواء من تأليفه أو من تأليف غيره، ومن هذه الدروس والشروح ما يتكرر أكثر من مرة، منها:

أ. "شرح الأصول من علم الأصول". ب. "شرح زاد المستقنع".

ت. " أبواب من صحيح البخاري". ث. "أبواب من صحيح مسلم".

ج. " شرح ألفية ابن مالك". ح. "شرح الآجرومية".

خ. "شرح العقيدة السفارينية". د. "شرح كتاب التوحيد".
ذ. " شرح الواسطية ". ر. "شرح التدمرية".
ز. " شرح الحموية ". س. "شرح البيقونية".
ش. " شرح نخبة الفِكَر ". ص. "شرح الأجزاء الأخيرة من القرآن".
ض. "شرح بعض السور، مثل البقرة، وآل عمران، والنساء، والأحزاب، وسبأ.. وغيرها بطريقة التفصيل واستنباط الفوائد والأحكام".
ط. "شرح بلوغ المرام" وغير ذلك كثير، يصعب حصرها وتعدادها الآن.

آخر ساعات الشيخ ـ رحمه الله ـ كانت مع كتاب الله تعالى: تحدث الدكتور "عامر رضوي" عن آخر ساعة في حياة فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين بأنه كان يقرأ القرآن الكريم، ثم دخل في غيبوبة وبعدها بساعة انتقل إلى جوار ربه الكريم، وذكر د. رضوي بأن الشيخ رحمه الله كان قليل الكلام، كثير الحمد والاستغفار، وقد سمعه يقرأ سورة الفاتحة وفي مرات أخرى كان يتمتم لصعوبة حالته الصحية وعندما سأل أبناءه عن ما يتمتم به الشيخ ذكروا بأنه يقرأ القرآن.

ما حصل عند تغسيل الشيخ: ذكر المغسلون الذين قاموا بتغسيل الشيخ رحمه الله وتكفينه أنهم شاهدوا نورا وبشاشة في الوجه وسهوله في التغسيل، حتى أن المغسلين تفاجئوا من نظافة الشيخ عندما أتوا به وكانوا يعتقدون أنه قد غسل قبل مجيئه، وبسبب ارتخاء في الفكين كان فم الشيخ مفتوحا ظاهرة أسنانه وكأنه مبتسم فحاول ابنه عبد الرحمن قفل فم الشيخ لمدة نصف ساعة ومع ذلك لم يستطيعوا.. ولعل هذا بإذن الله من المبشرات.

مقدمة الرسالة

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه،ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً، أما بعد:

فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عونا له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنياً على أسس قوية ودعائم راسخةً، وقد قيل:

"من حُرِم الأصول حرم الوصول" ١

ومن أجل فنون العلم، بل هو أجلها وأشرفها، علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل وقد وضع أهل العلم له أصولاً، كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً، ولعلم الفقه أصولاً، وقد كنت كتبت من هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أفردها في رسالة، ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك. وأسأل الله تعالى أن ينفع بها، ويتلخص ذلك فيما يأتي:

القرآن الكريم:

- متى نزل القرآن على النبي ﷺ ومن نزل به عليه من الملائكة ؟
- أول ما نزل من القرآن.
- نزول القرآن على نوعين: سبي وابتدائي.

١- **من كلام شيخ الإسلام، رحمه الله:** (من ضيع الأصول حرم الوصول، ومن ترك الدليل ضل السبيل) الدرر السنية في الكتب النجدية (٥/ ٣٥٢)

- القرآن مكي ومدني، وبيان الحكمة من نزوله مفرقاً.
- وترتيب القرآن.
- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي ﷺ
-جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان ﷺ

التفسير:

- معنى التفسير لغة واصطلاحاً، وبيان حكمه، والغرض منه.
- الواجب على المسلم في تفسير القرآن.
- المرجع في التفسير إلى ما يأتي:

أ-كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن.

ب- سنة الرسول ﷺ لأنه مبلغ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

ج. كلام الصحابة ﷺ لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

د. كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة ﷺ.

هـ. ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، فإن اختلف الشرعي واللغوي، أخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.

- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور
- ترجمة القرآن: تعريفها - أنواعها - حكم كل نوع.
- خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير ثلاث للصحابة واثنتان للتابعين.

أقسام القرآن من حيث الأحكام من المتشابه

- موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه.
- التشابه: حقيقي ونسبي.

- الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك.

الْقَسَم : تعريفه - أداته- فائدته

القصص: تعريفها - الغرض منها - الحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقصر والأسلوب.

الإسرائيليات التي أقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.

الضمير: تعريفه - مرجعه - الإظهار موضع الإضمار وفائدته - الالتفات وفائدته - ضمير الفصل وفائدته.

القرآن الكريم

القرآن في اللغة: مصدر ١ قرأ بمعنى تلا، أو بمعنى جمع، تقول قرأ قَرْءاً وقرآناً، كما تقول: غفر غَفْراً وغُفراناً:

فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدراً بمعنى اسم المفعول؛ أي بمعنى متلوّ،

وعلى المعنى الثاني: (جَمَعَ) يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل؛ أي بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام ٢

والقرآن في الشرع: "كلام الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس" قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} [الإنسان: ٢٣] وقال: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ٢] ٣

١- **تعريف المَصْدَرُ:** هو لَفْظ يَدُل على حَدث غَير مُقْتَرِن بِزمن مُشْتَمِل على أحْرف فعله، مثل : ضرب – ضرباً، وأكل – أكلاً.

٢- ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول أيضا، أي: بمعنى مجموع لأنه جمع في المصاحف والصدور.

وسُمِّي القرآن قرآنًا، لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور، بعضها إلى بعض.

٣- ما سبب تسمية القرآن الكريم بعد جمعه بالمصحف؟

قال السيوطي في الإتقان: أخرج ابن أبي شيبة في كتاب المصاحف من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق، قال أبو بكر: التمسوا له اسماً، فقال بعضهم: السفر، وقال بعضهم: المصحف، فإن الحبشة يسمونه المصحف، وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف.

وقد حمى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفل عز وجل بحفظه: فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩] ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغير فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يبدل، إلا هتك الله ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب:

- قال الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [الحجر: ٨٧]
- {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} [ق: ١]
- وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]
- {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: ١٥٥]
- {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ } [الواقعة: ٧٧].
- {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]
- وقال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١]
- {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]
- {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ} [الأنعام: ١٩]

- {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان: ٥٢]
- وقال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩]
- {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [المائدة: ٤٨]

***

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بعث بها محمد ﷺ إلى كافة الناس:

- قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]
- {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [إبراهيم: ١، ٢]

***

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضاً كما قرره القرآن:

- قال الله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠]
- {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب: ٣٦]
- {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الحشر: ٧]

- {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [آل عمران: ٣١] ١

١- تنقسم السنة باعتبار علاقتها بالقرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: السنة المبينة أو المفسرة لما أُجمل في القرآن: كثير من الأحكام التي وردت في القرآن الكريم جاءت مجملاً أو عاماً أو مطلقاً أو مشتركاً، وهذا كله يحتاج إلى بيان لمجمله ومشتركه، وتقييد لمطلقه، وتخصيص لعامه، إذا المعنى المراد منه لا يفهم إلا بذلك، والسنَّة هي التي تولت هذه المهمة، مهمة البيان بأمر الله تعالى حيث قال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤] فكانت السنة الشريفة محتاجاً إليها لفهم الكتاب.

- سنة تبين مبهمة وتفصل مجمله: (الصلوات الخمس) فذكرها القرآن مجملة فقال تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ٤٣] فجاءت السنة وبينت عدد الصلوات وعدد الركعات وكيفية الصلاة وأوقاتها.

- سنة تخصص عمومه: قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١١] فإن ظاهر هذه الآية يدل على أن كل والد يرث ولده وكل مولود يرث والده، لكن جاءت السنة فبينت أن المراد بذلك مع اتفاق الدين بين الوالدين والمولودين، وأما إذا اختلف الدينان فإنه مانع من التوارث، واستقر العمل على ما وردت به السنة في ذلك فقد صح عنه ﷺ من حديث أسامة بن زيد أنه قال: "لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم".

القسم الثاني: السنة الاستقلالية، أو الزائدة على ما في القرآن، وهي التي تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه، ومثال ذلك: =

=

قال تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: ١٤٥] "قل لا أجد": أي لا يوجد غير ذلك، فهل الكلب يجوز أكله ؟ وهو غير مذكور في هؤلاء الأربعة. والذئب غير مذكور هل يجوز أكل الذئب؟؟ جاءت السنة كما في صحيح مسلم "نهى النبي ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطير" فالسنة هنا أضافت تحريمًا.

القسم الثالث: وهي الموافقة للقرآن من كل وجه: ومثال ذلك: قوله ﷺ « اتقوا الله في النساء؛ فإنهن عوان عندكم» الحديث، فهذا موافق لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء١٩].

١- نزول القرآن

نزل القرآن أول ما نزل على الرسول ﷺ في ليلة القدر في رمضان: ١

- قال الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١]

- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٣، ٤]

- {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ } [البقرة: ١٨٥]

وكان عمر النبي ﷺ أول ما نزل عليه القرآن أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس ﷺ وعطاء وسعيد بن المسيِّب وغيرهم، وهذه السِّن هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك ٢

١- **وقبل رمضان كان يأتيه الوحي على صورة رؤيا،** كما في الصحيحين، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ"، في شرح النووي على مسلم (١/ ٢٨٧): قَالَ أَهْل اللُّغَة فَلَق الصُّبْح، وَفَرَق الصُّبْح بِفَتْحِ الْفَاء وَاللَّام وَالرَّاء هُوَ ضِيَاؤُهُ وَإِنَّمَا يُقَال هَذَا فِي الشَّيْء الْوَاضِح الْبَيِّن.

قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّه وَغَيْره مِنْ الْعُلَمَاء: إِنَّمَا ابْتُدِئَ ﷺ بِالرُّؤْيَا لِئَلَّا يَفْجَأهُ الْمَلَك وَيَأْتِيه صَرِيح النُّبُوَّة بَغْتَة فَلَا يَحْتَمِلهَا قُوَى الْبَشَرِيَّة فَبُدِئَ بِأَوَّلِ خِصَال النُّبُوَّة وَتَبَاشِير الْكَرَامَة مِنْ صِدْق الرُّؤْيَا، وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الْآخَر مِنْ رُؤْيَة الضَّوْء وَسَمَاع الصَّوْت وَسَلَام الْحَجَر وَالشَّجَر عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ.

٢- **نزول الوحي على النبي ﷺ كان بعد أربعين سنة مضت من عمره ﷺ كما هو حال كثير من الأنبياء،** ولم يكن بعد خمس وأربعين، فقد روى الإمام أحمد والشيخان عن ابن عباس ﷺ قال: "أُنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة" =

والذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى إلى النبي ﷺ جبريل أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] وقد كان لجبريل عليه السلام من

=

وهذا ما اتفق عليه أهل العلم بالسير والتاريخ، **وقد حدد المباركفوري رحمه الله في كتاب الرحيق المختوم نزول الوحي عليه ﷺ فقال:** وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد يوم نزول الوحي بأنه يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلا ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م، وكان عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و١٢ يوما وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و١٢ يوما، مع التنبيه إلى أن هناك اختلافا كبيرا في اليوم والشهر.

والحكمة من نزول الوحي بعد أربعين سنة هي والله أعلم: أنها مرحلة النضج وكمال العقل وحصول التجربة في الحياة ومعاملة الناس، قال القرطبي: ففي الأربعين تناهي العقل، وقال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس، فإذا أتت عليهم أربعون سنة اعتزلوا الناس واشتغلوا بالعبادة والتعليم حتى يأتيهم الموت، وفي رواية: "اشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت" (شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٥٢).

فائدة: مسألة أنه جاء في أحد الأحاديث الشريفة أن الأنبياء لا يبعثون قبل سن الأربعين، وفي آخر أن عيسى عليه السلام رفع في سن الثالثة والثلاثين، وعلى الرغم من كثرة وروده، فقد قال الحافظ ابن حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف: لم أجده، وكون عيسى عليه السلام نُبيء وهو ابن ثلاثين سنة على فرض صحته لا يتعارض مع مضمون الكلام المتقدم، لأن كون النبوة بعد الأربعين أمر غالبي فقط، وإلا فقد نبيء يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام وهو صبي، قال تعالى في شأنه: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا} [مريم: ١٢، ١٣] والله أعلم.

الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة؛ ما جعله أهلاً لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله:

- قال تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ١٩ - ٢١] [١]

- وقال: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى} [النجم: ٥ - ٧] [٢]

- وقال: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ١٠٢]

وقد بين الله تعالى لنا أوصاف جبريل الذي نزل بالقران الكريم من عنده، وتدل على عظم القران الكريم وعنايته تعالى به، فإنه لا يرسل من كان عظيما إلا بالأمور العظيمة.

١- **مَكِينٍ**: ذو مكانة.

٢- **ذُو مِرَّةٍ**: أي الهيئة الحسنة.

٢- أول ما نزل من القرآن [١]

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولى من سورة العلق: وهي قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥] ثم فتر الوحي مدة.

ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر: وهي قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ١ - ٥] ففي الصحيحين، صحيح البخاري ومسلم، عن عائشة ﵂ في بدء الوحي قالت: حتى جاءه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ، فقال النبي ﷺ ما أنا بقارئ (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث، وفيه ثم قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} إلى قوله: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥] وفيهما عن جابر ﵁ أن النبي ﷺ قال وهو يحدث عن فترة الوحي: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء....) فذكر الحديث، وفيه، فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ}إلى {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ١ - ٥]

١- لمعرفة أول وآخر ما نزل فوائد عديدة ، فمن ذلك:

١- معرفة تدرج القرآن في النزول، وما الأمور التي نزل بشأنها الوحي أولاً، وذلك للاستفادة منها في العلم والدعوة، وترتيب سلم الأولويات في حياة العلماء والدعاة.

٢- معرفة الناسخ والمنسوخ من الأحكام والتشريعات.

٣- ضبط ورصد كل ما يتعلق بالقرآن الكريم، لما له من المنزلة العظيمة في النفوس والقلوب.

وثمت آيات يقال فيها: أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أولية مقيدة: **مثل:** حديث جابر ﷺ في الصحيحين، أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر:١) قال أبو سلمة: أنبئت أنه (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق:١) فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ (جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت...) فذكر الحديث وفيه: (فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء بارداً، وأنزل علي: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر:١) إلى قوله: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (المدثر:١-٥) فهذه الأولية التي ذكرها جابر ﷺ باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت نبوة النبي ﷺ وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله (قُمْ فَأَنْذِرْ) (المدثر:٢) ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نبئ ب (اقْرَأْ) (العلق:١) وأرسل ب (الْمُدَّثِّرُ) (المدثر:١) ١

١- وفي رواية ذكرها الشيخان، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر قال: "سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: بينما أنا امشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض..." **وقد أجاب السيوطي في الإتقان ٢٤/١ عن حديث جابر ﷺ بأجوبة منها:**

١- أن مراد جابر بن عبد الله ﷺ إنّما هو فيما نزل سورة كاملة، ذلك أن المدثر نزلت بتمامها قبل سورة اقرأ، التي نزل منها صدر السورة فقط.

٢- أن مراد جابر يتعلّق بأوليّة الإنذار، لا مطلق الإنباء، فمن المعلوم أن سورة المدثر: نزلت آمرة النبي ﷺ أن ينطلق داعية إلى الله منذراً أهل الشرك والضلالة مغبة ما هم فيه من عبادة الأوثان وتقديس الأصنام، أما (سورة العلق) فلم يكن فيها شيء من ذلك، بل هو مجرد الإنباء والتهيئة لتلقي رسالة السماء.

=

=

لتتم الفائدة نذكر مسألة: "آخر ما نزل من القرآن": وقع الخلاف أيضاً في آخر القرآن نزولاً، وذلك على أقوال عدة، أهمها ما يلي:

القول الأول: ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن آخر ما نزل هو قوله تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ...} روى الشيخان عن البراء بن عازب قال: "آخر آية نزلت: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } [النساء: ١٧٦]

القول الثاني: آخر ما نزل هو قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٢٧٨] فقد أخرج البخاري عن ابن عباس ﷺ أنها آخر آية نزلت آية الربا.

القول الثالث: إن آخر ما نزل هو قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨١] وهذا القول رواية عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو سعيد وجماعة.

القول الرابع: أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: "نزلت هذه الآية {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...} وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء".

القول الخامس: إن آخر ما نزل هو قوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] فقد روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب: "أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أيّ آية؟! قال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...} قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة".

الراجح: إن المتأمل لهذه الأقوال يلمح لأول وهلة إنها أقوال غير مرفوعة إلى المعصوم ﷺ ولا تعدو كونها اجتهادات لقائليها، وعليه: فإن الفترة التي عاشها النبي ﷺ بعد نزول آخر آية من القرآن من العسير القطع بها، ولعل هذا السؤال من جملة الأسئلة التي لا يترتب عليها عمل، وعلى المسلم أن ينشغل بالعلم الذي تعود عليه معرفته بالنفع، وهو كثير جداً، والله اعلم.

٣- نزول القرآن ابتدائي وسببي

ينقسم نزول القران إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي

وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القران ١ ومنه قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [التوبة: ٧٥] الآيات فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له ٢

١- وذلك مثل الآيات التي اشتملت على الأحكام والآداب التي قصد بها ابتداءً هداية الخلق، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ومن هذا القسم غالبًا: الحديث عن الأمم الغابرة، وما حلّ بها، أو عن وصف الجنة والنار، وما يتعلق بقضايا الإيمان، ومثل هذه الآيات: إنما تركز على المقصد الأساس من نزول القرآن، وهو موضوع الهداية؛ أي: هداية الخلق إلى الخالق، ورسم الطريق الموصل إلى رضوانه، وأكثر القرآن نزل ابتداءً لهذه الأهداف.

٢- **القصة:** عن أبي أمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ ادع الله أن يرزقني مالا! فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة، **قليل تؤدِّي شكره، خير من كثير لا تطيقه!** قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: أما ترضى أن تكون مثل نبيِّ الله، فوالذي نفسي بيده، لو شئتُ أن تسيرَ معي الجبال ذهبًا وفضة لسارت! قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالا لأعطينّ كلّ ذي حق حقه! فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبه مالا! قال: فاتَّخذ غنمًا، فنمت كما ينمو الدُّود، فضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها، فنزل واديًا من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت، فتنحّى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقّى =

=

الركبان يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة! فأخبروه بأمره، فقال: يا ويْحَ ثعلبة! يا ويح ثعلبه! يا ويح ثعلبة! قال: وأنزل الله: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} [سورة التوبة: ١٠٣] الآية، ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة، رجلا من جهينة، ورجلا من سليم، وكتب لهما كيفَ يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: مرَّا بثعلبة، وبفلان، رجل من بني سليم، فخذا صدقاتهما! فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: **ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! ما أدري ما هذا!** انطلقا حتى تفرُغا ثم عودا إليّ، فانطلقا، وسمع بهما السُّلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهم بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، قال: بلى، فخذوه، فإنّ نفسي بذلك طيّبة، وإنما هي لي! فأخذوها منه، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا، حتى مرَّا بثعلبة، فقال: أروني كتابكما! فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: يا ويح ثعلبة! قبل أن يكلّمهما، ودعا للسلميّ بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، والذي صنع السلميّ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [التوبة: ٧٥] إلى قوله: {وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [التوبة: ٧٧] وعند رسول الله رجلٌ من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا وكذا! فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك! فجعل يَحْثي على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني! فلما أبَى أن يقبض رسولُ الله ﷺ رجع إلى منزله، وقُبِض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا، ثم أتى أبا بكر حين استُخلِف، فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي! فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأنا أقبلها! فقُبِض أبو بكر، ولم يقبضها، فلما ولي عمر، أتاه فقال:

=

القسم الثاني: سببي ١

وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه، والسبب:

أ- إما سؤال يجيب الله عنه: مثل {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } [البقرة: ١٨٩] ٢

=

يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي! فقال: لم يقبلها رسولُ الله ﷺ ولا أبو بكر، وأنا أقبلها منك! فقُبِض و لم يقبلها، ثم ولي عثمان رحمة الله عليه، فأتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضوان الله عليهما وأنا أقبلها منك! فلم يقبلها منه، وهلك ثَعْلبة في خلافة عثمان رحمة الله عليه (تفسير الطبري) (٣٧١/١٤) (الضعيفة (٤/ ١١١) ضعيف جدا)

١- قد يُعرَّف سبب النزول بما يأتي: "هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".

وقد اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف، ومن أشهرهم: "علي بن المديني" شيخ البخاري، ثم "الواحدي"، في كتابه "أسباب النزول"، ثم "الجعبري"، الذي اختصر كتاب "الواحدي" بحذف أسانيده و لم يزد عليه شيئًا، ثم شيخ الإسلام "ابن حجر"، الذي ألَّف كتابًا في أسباب النزول، وقد اطلع السيوطي على جزء من مسودته و لم يتيسر له الوقوف عليه كاملًا، ثم "السيوطي"، الذي قال عن نفسه: "وقد ألَّفت فيه كتابًا حافلًا موجزًا محررًا لم يُؤلَّف مثله في هذا النوع، سميته "لُباب المنقول في أسباب النزول".

٢- في زاد المسير في علم التفسير (١/ ١٥٢): نزلت على سبب: وهو أن رجلين من الصحابة قالا: يا رسول الله! ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد ويمتلئ حتى يستدير ويستوي، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ =

ب- أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير: مثل: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} [التوبة: ٦٥] الآيتين، نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أقرب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فجيبه {أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [التوبة: ٦٥]

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه: مثل {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]

***

فوائد معرفة أسباب النزول

معرفة أسباب النزول مهمة جدا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:

١- بيان أن القران نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفي عليه الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينا له

مثال الأول: قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥] ففي صحيح البخاري "عن عبد الله ابن مسعود ﷺ: أن رجلا من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت،

عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } [البقرة: ١٨٩] هذا قول ابن عباس ﷺ وقد ضعف البعض هذه القصة.

ومثل: حادثة خولة بنت ثعلبة، التي ظاهر منها أوس بن الصامت، فنزلت بسببها آيات الظهار في مطلع سورة "المجادلة" (١-٤)

وفي لفظ: فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥] الآية

مثال الثاني: قوله تعالى {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] وفي صحيح البخاري أن زيد بن أرقم ﷺ سمع عبد الله ابن أبي رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله ﷺ وأصحابه الأزل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي ﷺ فدعا النبي ﷺ زيدا فأخبره بما سمع ثم أرسل إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه: مثال ذلك: قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان: ٣٢] وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي ﷺ وتطهير له عن ما دنسه به الأفاكون.

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم، مثال ذلك: آية التيمم، ففي "صحيح البخاري" أنه ضاع عقد لعائشة ﷺ وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأقام النبي ﷺ لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث، وفيه: فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن حضير: "مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ" والحديث في البخاري مطولاً.

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح، مثال ذلك: قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة: ١٥٨] أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ}

[البقرة: ١٥٨] أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري، عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك ﷺ عن الصفا والمروة، قال: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلاَمُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} [البقرة: ١٥٨] إلى قوله: {أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة: ١٥٨] وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: {مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} [البقرة: ١٥٨]١

١- من الأمثلة:

- في الصحيحين، أَنَّ مَرْوَانَ، قَالَ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ - لِبَوَّابِهِ - إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا فَرِحَ بِمَا أُتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذَّبًا لَنُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ الْآيَةِ؟ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧] هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا} [آل عمران: ١٨٨]، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ، إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ، مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ» وهنالك زال الإشكال عنه وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده.

أيضا من فوائد معرفة أسباب النزول:

- يوضح سبب النزول مَن نزلت فيه الآية حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل، كالذي ذُكِرَ في قوله تعالى: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ =

عموم اللفظ وخصوص السبب:

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملا لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها، لأن القران كان نزل تشريعا عاما لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ} [النور: ٦] إلى قوله تعالى: {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [النور: ٩] ففي صحيح البخاري "من حيث ابن عباس ﷺ: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» فقال هلال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلْيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} [النور: ٦] فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [النور: ٩] ١

= وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأحقاف: ١٧] فقد أراد "معاوية" أن يستخلف "يزيد" وكتب إلى "مروان" عامله على المدينة بذلك، فجمع الناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة "يزيد"، أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه: "أن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال: سُنَّة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: سُنَّة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا}... الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كَذَبَ مَرْوَانُ، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته".

١- قال تعالى {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ =

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد ﷺ أن عُوَيْمِر الْعَجْلَانِيّ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنه بما سمي الله في كتابه، فلاعنها. الحديث، فجعل النبي ﷺ حكم هذه الآيات شاملا لهلال بن أمية وغيره ١

=

الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} [النور: ٦ - ١٠]

١- في صحيح البخاري (٩/ ٩٨): "عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: جَاءَ عُوَيْمِرٌ العَجْلاَنِيُّ، إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَدِيٍّ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَيَقْتُلُهُ، أَتَقْتُلُونَهُ بِهِ، سَلْ لِي يَا عَاصِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَكَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ المَسَائِلَ، وَعَابَهَا، فَرَجَعَ عَاصِمٌ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَرِهَ المَسَائِلَ، فَقَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللَّهِ لَآتِيَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَجَاءَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى القُرْآنَ خَلْفَ عَاصِمٍ، فَقَالَ لَهُ: «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكُمْ قُرْآنًا» فَدَعَا بِهِمَا، فَتَقَدَّمَا، فَتَلاَعَنَا، ثُمَّ قَالَ عُوَيْمِرٌ: كَذَبْتُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَمْسَكْتُهَا، فَطَارَقَهَا وَلَمْ يَأْمُرْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِفِرَاقِهَا، فَحَرَتِ السُّنَّةُ فِي المُتَلاَعِنَيْنِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انْظُرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَحْمَرَ قَصِيرًا مِثْلَ وَحَرَةٍ، فَلاَ أُرَاهُ إِلَّا قَدْ كَذَبَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَعْيَنَ ذَا أَلْيَتَيْنِ، فَلاَ أَحْسِبُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا» فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى الأَمْرِ المَكْرُوهِ (الوحرة) دويبة (أسحم) أي أسود و(أعين) الواسع العين العظيم.

الدليل على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

١- أننا نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل، دون ما احتف به من سؤال أو سبب فلا وجه إذن لأن تخصص اللفظ بالسبب، قال الإمام الشافعي: (السبب لا يصنع شيئاً إنما تصنع الألفاظ)؟ والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن =

=

الشارع قد يصرف النظر عن السؤال ويعدل بالجواب عن سنن السؤال لحكمة نحو قوله تعالى في سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [البقرة: ٢١٥] فإن ظاهر هذه الآية أن النبي ﷺ سئل عن بيان ما ينفقونه فجاء الجواب ببيان من ينفقون عليهم.

٢- لما أيقظ النبي ﷺ عليًا وأمره وفاطمة بالصلاة من الليل، وقال له علي ﷺ: إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا ولى ﷺ يضرب فخذه ويقول: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف: ٥٤] فجعل عليا داخلاً فيها مع أن سبب نزولها الكفار الذين يجادلون في القرآن، وخطابه ﷺ لواحد كخطابه للجميع كما تقدم ما لم يقم دليل على الخصوص.

٣- وأما اللغة: فإن الرجل لو قالت له زوجته: طلقني فطلق جميع نسائه لا يختص الطلاق بالطالبة التي هي السبب.

والعلة: أن الشريعة عامة فما الفائدة أنه يترتل الحكم لهذا السبب دون غيره؟؟!! والشريعة معروف أنها لكل العالمين كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١] "مذكرة الشنقيطي" (ص/٢٠٩)

فائدة: إذا ورد العام على سبب خاص وجب العمل بعمومه؛ إلا أن يدل دليل على تخصيص العام بما يشبه حال السبب الذي ورد من أجله فيختص بما يشبهها،

مثال ذلك: في الصحيحين من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَى رَجُلًا قَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَقَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا لَهُ؟» قَالُوا: رَجُلٌ صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ».

والدليل على تخصيصه بذلك ما في الصحيحين من حديث أبي الدرداء ﷺ قال: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا مِنَّا أَحَدٌ صَائِمٌ، إِلَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ» ولا يفعل رسول الله ﷺ ما ليس بر.

٤- المكي والمدني

نزل القران على النبي ﷺ مفرقا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضي رسول الله ﷺ أكثرها بمكة، قال الله تعالى {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء: ١٠٦] ولذلك قسم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين: مكي ومدني:

❖ فالمكي: ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

❖ والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] من القسم المدني وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حجة الوداع بعرفة، ففي صحيح البخاري عن عمر ﷺ أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة ١

١- للعلماء ثلاثة اتجاهات في معنى المدني والمكي:

الاتجاه الأول: اعتبار زمن النزول:

○ فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة

○ والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عرفة: مدني، كـ:

- الذي نزل عام الفتح، كـ: قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨] فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم.

يبلغ عدد السور المكية اثنان وثمانون سورة وهي: الأنعام، الأعراف، يونس، هود،، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، الفرقان، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت،، يس، الصافات، ص، =

=

الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، الذاريات، الطور، الروم، لقمان، السجدة، سبأ، فاطر، النحم، القمر، الواقعة، الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة، التكوير، الانفطار، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الانشراح، التين، العلق، العاديات، الإنسان، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، والمسد.

يبلغ عدد السور المدنية عشرين سورة وهي: البقرة، آل عمران، النساء، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، المائدة، الأنفال، التوبة، النور الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، والنصر.

أما السور التي اختلف فيها إن كانت مدنية أو مكية عددها اثنتا عشرة سورة وهي: الفاتحة، الرعد، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الرحمن، الصف، التغابن، الإخلاص، الفلق، والناس

الاتجاه الثاني: اعتبار مكان النزول:

- فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمِنى وعرفات والحديبية
- والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأُحد وقُباء وسلع

ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة، فلا يسمى مكيًّا ولا مدنيًّا، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيًّا.

الاتجاه الثالث: اعتبار المخاطَب:

- فالمكي: ما كان خطابًا لأهل مكة
- والمدني: ما كان خطابًا لأهل المدينة

وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} مكي، وما فيه من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} مدني، وبالملاحظة يتبين =

ويتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أ- أما من حيث الأسلوب فهو:

١- الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة الخطاب، لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، اقرأ سورتي المدثر، والقمر.

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسهولة الخطاب، لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، اقرأ سورة المائدة.

٢- الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة، لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون، فخوطبوا بما تقتضيه حالهم، اقرأ سورة الطور.

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام، مرسلة بدون محاجة، لأن حالهم تقتضي ذلك، أقرأ اية الدين في سورة البقرة.

ب- وأما من حيث الموضوع فهو:

أن أكثر سور القرآن لم تُفْتَتَحْ بأحد الخطابين، وأن هذا الضابط لا يطرد: فسورة البقرة مدنية، وفيها {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١] وقوله تعالى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨]

ويمكن ترجيح الاتجاه الأول لميزات فيه:

الأولى: أن هذا الاتجاه يجعل جميع آيات القرآن إما مكية وإما مدنية بخلاف التفسير على أساس الاتجاهين الآخرين فلحاظ زمن معين يجعل من السهولة معرفة أن الآية مكية أو مدنية لأنها إما نزلت قبل الهجرة أو بعدها.

الثانية: أن تمييز الآيات النازلة قبل الهجرة عن الآيات النازلة بعدها ربّما تترتب عليه آثار هامّة، حيث يمكن استكشاف خصائص لكل من القسمين تُميّزه عن القسم الآخر، باعتبار أن حدث الهجرة الذي يميز بين القسمين ليس قضية هامشية عابرة في مسيرة الرسالة الإسلامية، وإنّما هو حدث فاصل وحاسم فيها.

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث، لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك.

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات، لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فوائد معرفة المدني والمكي: معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة، وذلك أن فيها فوائد منها:

١- ظهور بلاغة القران في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

٢- ظهور حكمه التشريع في أسمى غاياته حيث يتدرج شيئا فشيئا بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

٣- تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القران في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها ١

١- مميزات السور المكية:

١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

٢- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن. وذُكرت ثلاثًا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة.

=

الحكمة من نزول القرآن الكريم: من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مفرقا، ولتزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها:

=

٣- كل سورة فيها: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) وليس فيها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فهي مكية، إلا سورة الحج، ففي أواخرها: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الحج: ٧٧] ومع هذا فإن كثيرًا من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية، سوى البقرة.

٥- كل سورة فيها آدم وإبليس فهي مكية، سوى البقرة كذلك.

٦- فضح أعمال المشركين من وأد للبنات وأكل أموال اليتامى وسفك للدماء.

٧- الدعوة لعبادة الله وتوحيده وعدم الشرك.

٨- ذكر الجنة والنار ومجادلة الكفار والمشركين.

٩- ألفاظها قصيرة وعباراتها موجزة وألفاظها قوية.

١٠- ابتداء معظمها بحروف التهجي مثل الم، الر، حم.

مميزات السور المدنية

١- كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية.

٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، سوى العنكبوت، فإنها مكية.

٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

٤- يكثر فيها الحديث عن العبادات وبيان المعاملات والأمور التي تخص الإسلام من قواعد وحكم وحدود وأمور التعامل في حالات الحرب والسلم والجهاد ونظام الأسرة ووسائل التشريع.

٥- دعوة أهل الكتاب للإسلام ومخاطبتهم.

٦- تتميز بطول آياتها و مقاطعها.

٧- يتميز أسلوبها بأنه يقرر قواعد الشرع ومراميه وأهدافه.

١- تثبيت قلب النبي ﷺ لقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان:٣٢، ٣٣]

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئا فشيئا، لقوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء: ١٠٦]

٣- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القران وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان.

٤- التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه، ألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يجابهوا بالمنع منه منعا باتا:

- فنزل في شأنه أولا قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩] فكان في هذه الآية تمهيد للنفوس لقبول تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئا إثمه أكبر من نفعه.

- ثم نزل ثانيا قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣] فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات.

- ثم نزل ثالثا قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [المائدة: ٩٠-٩٢] فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منها باتا في جميع الأوقات، بعد أن هيئت النفوس، ثم مرنت على المنع منه في بعض الأوقات ١

١- **في مباحث في علوم القرآن (ص: ١١٧)**: الاستفادة من نزول القرآن مُنَجَّمًا في التربية والتعليم: تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين:

- مراعاة المستوى الذهني للطلاب.
- وتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلى الخير والرشاد.

ونحن نلحظ في حكمة نزول القرآن مُنَجَّمًا ما يفيدنا في مراعاة هذين الأمرين على النحو الذي ذكرناه آنفًا:

- فإن نزول القرآن الكريم تدرج في تربية الأمة الإسلامية تدرجًا فطريًّا لإصلاح النفس البشرية، واستقامة سلوكها، وبناء شخصيتها، وتكامل كيانها، حتى استوت على سوقها، وآتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة.

- وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه، والعمل بما فيه.

- وبين نزول القرآن في مطلع الوحي بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥] ونزول آيات الربا والمواريث في نظام المال، أو نزول آيات القتال في المفاصلة التامة بين الإسلام والشرك - بين ذاك وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التي تلائم مستوى المجتمع الإسلامي في تدرجه من الضعف إلى القوة، ومن القوة إلى شدة البأس.

والمنهج الدراسي الذي لا يُراعى فيه المستوى الذهني للطلاب في كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والانتقال من الإجمال إلى التفصيل، =

=

أو لا يراعي تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسمية منهج فاشل لا تجني منه الأمة ثمرة علمية سوى الجمود والتخلف.

والمدرس الذي لا يعطي طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيُثْقِل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظًا أو فهمًا أو يحدثهم بما لا يدركون، أو لا يراعي حالهم في علاج ما يعرض لهم من شذوذ خُلُقي أو يفشو من عادات سيئة، فيقسو وينعسف، ويأخذ الأمر دون أناة وروية، وتدرج وحكمة - المدرس الذي يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك، يُحوِّل العملية التعليمية إلى متاهات موحشة، ويجعل غرف الدراسة قاعات منفرة

وقسْ على هذا الكتاب المدرسي، فالكتاب الذي لا تنتظم موضوعاته وفصوله، ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب، ولا تترتب جزئياته ترتيبًا محكمًا منسقًا، ولا يكون أسلوبه واضحًا في أداء المعنى المقصود، كتاب ينفر الطالب من قراءته، ويحرمه من الاستفادة منه.

والهَدْي الإلهي في حكمة نزول القرآن مُنَجَّمًا هو الأسوة الحسنة في صياغة مناهج التعليم، والأخذ بأمثل الطرق في الأساليب التربوية بقاعة الدرس، وتأليف الكتاب المدرسي، والله أعلم.

ترتيب القرآن

ترتيب القرآن: تلاوته تاليا بعضه بعضا حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات: بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفا في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: الله الحمد رب العالمين بدلا من {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢]

النوع الثاني: ترتيب الآيات: [١]

بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته ولا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلا من: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٣، ٤]

ففي صحيح البخاري أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان ﷺ في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} [البقرة: ٢٤٠] قَدْ نَسَخَتْهَا الآية الأُخْرَى يعني قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [البقرة: ٢٣٤] وهذه قبلها في التلاوة قال: فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ فقال عثمان ﷺ: «يَا ابْنَ أَخِي لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ»

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث عثمان ﷺ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ

١- **الآية:** هي الجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآن.

دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ، فَيَقُولُ: «ضَعُوا هَؤُلَاءِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا» ١

النوع الثالث: ترتيب السور: ٢ بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبا، وفي "صحيح المسلم" عن حذيفة بن اليمان ﷺ: أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ النبي ﷺ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري تعليقا عن الأحنف: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أن صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "تجور قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة ﷺ في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان ﷺ صار هذا مما سنة الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب اتباعها " أهـ٣

١- ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص: ٣٨٠)

ترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفي عن رسول الله ﷺ وحكى بعضهم الإجماع على ذلك: منهم: الزركشي في "البرهان".

٢- السورة: هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع.

٣- هل ترتيب السور توقيفي أم اجتهادي؟ اختلف العلماء في ترتيب السور:

القول الأول: إنه توقيفي، تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه، فكان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتب السور، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذي لدينا اليوم، وهو ترتيب مصحف عثمان الذي لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع عليه، وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس.

=

=

القول الثاني: إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة: وينسب هذا القول إلى جمهور العلماء منهم مالك والقاضي أبو بكر فيما اعتمده من قوليه، واستدلوا بـ:

اختلاف الصحابة في ترتيب مصاحفهم:

- فمصحف "علي" كان مرتبًا على النزول، أوله: اقرأ، ثم المدثر، ثم ن والقلم، ثم المزمل وهكذا... إلى آخر المكي والمدني

- وكان أول مصحف ابن مسعود: البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران

- وأول مصحف أُبَي: الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران

وأجيب: بأن الاختلاف لا يصلح أن يكون دليلا على أنه ليس توقيفيا، وذلك لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف عامة بل كانت مصاحف خاصة ببعض مسائل العلم والتأويل فهي إلى كتب التأويل أقرب منها إلى المصاحف المجردة لذلك لم يعتمد عليها عند جمع المصاحف في عهد عثمان في زيادة أو نقص وبالتالي لم يعتمد عليها في الترتيب، أو نقول: اختلافهم كان قبل العلم بالتوقيف فلما علموا تركوا ترتيب المصاحف واتبعوا ترتيب المصاحف العثمانية.

القول الثالث: إن بعض السور ترتيبه توقيفي وبعضها باجتهاد الصحابة، واستدلوا بـ:

١- ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة، فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصَّل في حياته ﷺ

٢- في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: "اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران".

٣- في صحيح البخاري: "أنه ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و"المعوذتين.

وأجيب: بأن أدلة هذا القول ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفي، أما القسم الاجتهادي فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادي، إذ إن ثبوت التوقيفي بأدلته لا يعني أن ما سواه اجتهادي، مع أنه قليل جدًّا، بيد أن =

=

المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد.

والراجح والله أعلم: أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات: ويؤيد هذا الرأي:

١- الصحابة أجمعوا على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد عثمان حتى من كان عنده مصحف على ترتيب آخر لم يخالف مصحف عثمان، فلو لم يكن الأمر توقيفيا لحصل من أصحاب المصاحف الأخرى أي مخالفة لهذا المصحف أو اعتراض.

٢- بأن الحواميم رتبت متتابعة ولم ترتب المسبحات متتابعة بل فصل بين سورها بالمجادلة والممتحنة والمنافقون، وكذلك فصل بين طسم (الشعراء) وطسم (القصص) بطس (النمل) مع أنها أقصر فلو كان الترتيب اجتهاديا ما حدث الفرق بين المتماثلات من السور في الفواتح.

٣- ورُوي من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال: "سمعت ربيعة يسأل: لم قُدِّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة مكية، وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال: قُدِّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن أَلَّفه به، ثم قال: فهذا مما يُنْتَهى إليه ولا يُسأل عنه" (أخرجه ابن أشته في كتاب "المصاحف" والمراد بالتأليف: الجمع).

٤- أن رسول الله ﷺ قرأ بعض السور مرتبة في صلاته، رَوَى ابن أبي شيبة: أنه ﷺ كان يجمع المفصَّل في ركعة، ورَوَى البخاري عن ابن مسعود ﷺ أنه قال (في بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي) أرادَ بالعِتَاق الأوَل السُّوَرَ التي أُنْزِلت أوَّلاً بمكة، وأنها من أوّل ما تَعلَّمه من القرآن) (وَهن من تلادي: أي مِمَّا حفظته قَدِيمًا، والتليد والتالد ضد الطريف، فالتليد: الْقَدِيم، والطريف: المستحدث) فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها، واعلم أن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب على قول كثير من أهل العلم لأن النبي ﷺ قرأ النساء قبل آل عمران.

قال أبو بكر بن الأنباري: "أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرَّقه في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لمستخبِر، ويوقف جبريل =

=

النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فمن قدَّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن"

وقال الكرماني في "البرهان": "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللَّوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السَّنَة التي توفي فيها مرتين، وكان آخر الآيات نزولًا: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [البقرة: ٢٨١] فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدَّيْن".

ومال السيوطي إلى ما ذهب إليه البيهقي قال: "كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان" وقد رجح هذا القول الشيخ مناع القطان في كتابه "مباحث في علوم القرآن"

كيف تم تسمية سور القرآن الكريم في المصحف؟

اختلف العلماء، هل أسماء سور القرآن الكريم كلها ثابتة عن النبي ﷺ أم أن بعضها ثبت اجتهاداً عن الصحابة ﷺ؟

القول الأول: أنها توقيفية، ذهب أكثر العلماء إلى أن أسماء سور القرآن كلها توقيفية عن النبي ﷺ واستدلوا بـ:

١- في صحيح مسلم وغيره، عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ" وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: "كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا سُوَرٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا"

٢- في صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»

٣- في صحيح مسلم عن حذيفة قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: =

=

يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا،... إلى آخر الحديث.

٤- في الصحيحين في قصة الرجل الذي أراد أن يتزوج امرأة، وليس معه شيء من المال، فقال له النبي ﷺ «مَاذَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ» قَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا، عَدَّدَهَا، فَقَالَ: «تَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»

القول الثاني: أن بعض أسماء سور القرآن الكريم كان بتسمية النبي ﷺ لها، وبعضها كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم، مثل ما رود في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير: قلت لابن عباس سورة الحشر، قال: تلك سورة بني النظير، وجاء في "فتاوى اللجنة الدائمة" (١٦/٤): "لا نعلم نصا عن رسول الله ﷺ يدل على تسمية السور جميعها، ولكن ورد في بعض الأحاديث الصحيحة تسمية بعضها من النبي ﷺ كالبقرة، وآل عمران، أما بقية السور فالأظهر أن تسميتها وقعت من الصحابة ﷺ" انتهى .

الراجح:

- منها ما هو توقيفي وهو الأكثر.

- ومنها ما هو باجتهاد من الصحابة ومن بعدهم.

لأنه لم يرد عن النبي ﷺ نص بتسمية جميع السور، ولما اشتهر بين المسلمين على مرِّ العصور من تسمية السور بأكثر من اسم، كتسميتها بذكر أولها (كتسمية سورة الملك بسورة تبارك) وسورة النبأ بسورة (عم) وهكذا.

فيكون التوقيفي من الأسماء ما ورد عن النبي ﷺ وما لم يرد فيه نص عنه ﷺ فيحتمل أن يكون باجتهاد من الصحابة ومن بعدهم، وما كان من الصحابة أقوى مما كان من بعدهم؛ لاحتمال سماعهم من النبي ﷺ

- أما تغيير الأسماء في زماننا هذا فنقول فيه:

- لا يجوز تغيير ما كان توقيفيًّا من أسماء السور مما وردت به النصوص عن النبي ﷺ =

=

- وأما ما لم يرد به نصٌّ فيجب الالتزام به؛ لاتفاق الأمة على التسميات المعروفة، ولمنع فتح الباب لتغيير أسماء السور، لما يترتب على ذلك من مفاسد، حتى لا يصير القرآن ألعوبة بين أيدي الناس، وحتى لا يكون ذلك سبباً في اختلاف الناس، واتهام بعضهم لبعض، لجهل أغلبهم بما هو توقيفي منها وما هو اجتهادي، والله تعالى أعلم.

إن أسماء السور كانت معروفة على عهد رسول الله ﷺ ومشهورة، وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن هذه التسمية كانت متداولة في ذلك العهد:

فائدة: يمكن تقسيم سور القرآن من حيث الاسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ماله اسم واحد، وهو أكثر سور القرآن، مثل النساء والأعراف والأنعام وغيرها.

القسم الثاني: ما له أكثر من اسم:

- ويشمل هذا النوع سوراً لها اسمان كسورة (محمد)، حيث تسمى (القتال)، وسورة (الجاثية) تسمى (الشريعة)، وسورة (النحل) تسمى (النِّعم) لما عدد الله فيها من النِّعم على عبادة.

- ويشمل سوراً لها ثلاثة أسماء مثل (المائدة) وتسمى (العقود) و(المنقذة)، ومثل سورة (غافر) وتسمى (الطَّوْل) و(المؤمن).

- ويشمل سوراً لها أكثر من ثلاثة أسماء مثل:

سورة (التوبة) اسمها (براءة) و(الفاضحة) و(الحافرة) وقال حذيفة هي سورة (العذاب) وقال ابن عمر كنا ندعوها (المُشقْشِقَة) وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى (المُبَعْثِرة) ويقال لها (المُسورة) ويقال لها (البَحُوث بفتح الباء على وزن فعول من صيغ المبالغة، وقيل بالضم وسميت بذلك لكثرة البحث فيها عن أسرار المنافقين، وهو إثارتها والتفتيش عنها)

وكسورة الفاتحة فقد ذكر السيوطي لها خمسة وعشرين اسماً منها (أم الكتاب) (أم القرآن) و(السبع المثاني) و (الصلاة) و (الحمد) و (الوافية) و(الكنز) و(الشافية) و(الشفاء) و(الكافية) و(الأساس).

=

=

القسم الثالث: أن تسمى عدة سور باسم واحد: ومن ذلك تسمية البقرة وآل عمران بـ (الزهراوين) وتسمية سورتي الفلق والناس بـ (المعوذتين) وتسمية السور المبدوءة بـ (حم) بـ (الحواميم).

سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة: ١- الطوال. ٢- والمئين. ٣- والمثاني. ٤- والمفصَّل.. نوجز أرجح الآراء فيها.

١- فالطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة، **قيل:** هي الأنفال وبراءة معًا لعدم الفصل بينهما بالبسملة، **وقيل:** هي يونس.

٢- المئون: التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

٣- والمثاني: هي التي تليها في عدد الآيات، سميت بذلك لأنها تُثنَّى في القراءة وتُكرَّر أكثر من الطوال والمئين.

٤- والمفصَّل: قيل: من أول سورة "ق"، **وقيل:** من أول "الحجرات"، **وقيل:** غير ذلك، **وأقسامه ثلاثة،** طواله، وأوساطه، وقصاره.

فطواله: من "ق" أو "الحجرات" إلى "عم" أو "البروج"

وأوساطه: من "عم" أو "البروج" إلى "الضحى" أو إلى "لم يكن"

وقصاره: من"الضحى" أو "لم يكن" إلى آخر القرآن، على خلاف في ذلك.

وتسميته بالمفصَّل: لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

وتعداد السور: مائة وأربع عشرة سورة، وقيل: وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة.

أما تعداد الآيات: فستة آلاف ومائتا آية، واختلفوا فيما زاد عن ذلك.

وأطول الآيات: آية الدَّيْن.

وأطول السور: سورة البقرة.

٥- كتابة القرآن وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي ﷺ وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عُسُب النّخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكسر الأكتاف ١ وكان القراء عددا كبيرا.

ففي "صحيح البخاري": عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ بعث سَبْعِينَ رَجُلًا يُقَالَ لَهُمُ: الْقُرَّاءُ، فَعَرَضَ لَهُمْ حَيَّانِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ عِنْدَ بِئْرٍ معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء ﷺ

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر ﷺ في السنة الثانية عشرة من الهجرة.

وسببه: أنه قتل في وقعة اليمامة عدد كبير من الْقُرَّاء منهم، سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن منهم، فأمر أبو بكر ﷺ بجمعه

١- **عُسُب النّخل:** العُسُب، بضم العين والسين، جمع عَسِيب جريد النخل وهو عود قضبان النخل كانوا يكشطون خوصها ويتخذونها عصيا، وكانوا يكتبون في طرفه العريض منه، ومنه قوله في الحديث فجعلت أتتبعه في الْعَسِيبِ يريد القرآن.

رقاع الجلود: يأخذونها مدبوغة فيكتب فيها.

لخاف الحجارة: اللِّحاف، بكسر اللام ثم خاء معجمة خفيفة وآخره فاء: جمع لَحْفَة: وهي صفائح الحجارة الرقاق، فهي حجارة ملساء تشبه العظام.

كسر الأكتاف: أكتاف الحيوان البعير الشاة البقرة.

لئلا يضيع، ففي "صحيح البخاري" أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر ﷺ بجمع القرآن بعد وقعة اليَمَامَةِ، فتوقف تورعا، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر، فقال له أبو بكر: إنك رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لاَ نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ، فَاجْمَعْهُ، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ ﷺ رواه البخاري موصولا، وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدوه من حسناته، حتى قال علي ﷺ: أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله ١

١- في صحيح البخاري، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: بَعَثَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ لِمَقْتَلِ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِقُرَّاءِ القُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِقُرَّاءِ القُرْآنِ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا، فَيَذْهَبَ قُرْآنٌ كَثِيرٌ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ القُرْآنِ"، قُلْتُ: «كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟» فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِي ذَلِكَ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ عُمَرَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «وَإِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لاَ نَتَّهِمُكَ قَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ، فَاجْمَعْهُ»، قَالَ زَيْدٌ: فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ بِأَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا كَلَّفَنِي مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ» فَلَمْ يَزَلْ يَحُثُّ مُرَاجَعَتِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَيَا، فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ، أَجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَالرِّقَاعِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، فَوَجَدْتُ فِي آخِرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة: =

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ في السنة الخامسة والعشرين.

وسببه: اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة ﷺ فخيفت الفتنة، فأمر عثمان ﷺ أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي "صحيح البخاري": أن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ، فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ، مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ، اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ؛ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَانِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ، أَوْ مُصْحَفٍ، أَنْ يُحْرَقَ".

وقد فعل عثمان ﷺ هذا بعد أن استشار الصحابة ﷺ لما روى ابن أبي داود عن علي ﷺ أنه قال: والله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ منا،

١٢٨] إِلَى آخِرِهَا مَعَ خُزَيْمَةَ، أَوْ أَبِي خُزَيْمَةَ، فَأَلْحَقْتُهَا فِي سُورَتِهَا، وَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَيَاتَهُ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ

قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا، فنعم ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان ﷺ التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مكملة لجمع خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر ﷺ.

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر ﷺ:

أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر ﷺ تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف، حتى لا يضيع منه شئ دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان ﷺ فهو تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات، وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشو البغضاء، والعداوة، وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقا عليه بين المسلمين متواترا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين، فلله الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ١

١- **خطة عثمان في نسخ المصاحف:** حدد عثمان ﷺ مع الكُتّاب ﷺ الأسس والمنهج الذي يعتمدون عليه في نسخ المصاحف العثمانية وهي:

=

=

١- لا يكتب شيء إلا بعد التحقق من أنه قرآن.

٢- لا يكتب شيء إلا بعد العلم بأنه استقر في العرضة الأخيرة.

٣- لا يكتب شيء إلا بعد التأكد أنه لم ينسخ.

٤- لا يكتب شيء إلا بعد عرضه على جمع من الصحابة.

٥- إذا اختلفوا في شيء من القرآن كتبوه بلغة قريش، وحين اختلفوا في كتابة "التابوت" فقال زيد: "التابوه" وقال النفر القرشيون: "التابوت" وترافعوا إلى عثمان ﷺ قال: "اكتبوا "التابوت" فإنما أُنزل القرآن على لسان قريش.

٦- يحافظ على القراءات المتواترة، ولا تكتب قراءة غير متواترة.

٧- اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات يرسم بصورة واحدة.

٨- اللفظ الذي تختلف فيه وجوه القراءات، ويمكن رسمه في الخط محتملاً لها كلها يكتب برسم واحد مثل: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦] فإنما تصح أن تقرأ بالقراءة الأخرى (فتثبتوا) لأن الكتابة كانت خالية من النقط والشكل.

٩- اللفظ الذي تختلف فيه وجوه القراءات، ولا يمكن رسمه في الخط محتملاً لها يكتب في نسخة برسم يوافق بعض الوجوه وفي نسخة أخرى برسم يوافق الوجه الآخر، مثل {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [البقرة: ١٣٢] فإنما تكتب في نسخة أخرى (وأوصى).

وبهذا المنهج الدقيق والأسس السلمية كتب المصحف العثماني فكان في غاية الدقة والضبط والتحري، ولله الحمد والمنة.

شبهة وجوابها

لم يكن جمع القرآن في الصحف بدعة، لأن النبي ﷺ لم يتركه كفاً عن فعله قاصداً التعبد لله تعالى بذلك، وإنما تركه لأنه لم يكن ثمة داع لفعله في زمنه ﷺ فلم يكن فعله بعد النبي ﷺ بدعة إذن.

=

=

في مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٢٤٨): لماذا لم يجمع القرآن أيامئذ في صحف ولا مصاحف؟ وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة:

أولها: أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف، فالمسلمون وقتئذ بخير والقراء كثيرون والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد والفتنة مأمونة والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة وأدوات الكتابة غير ميسورة وعناية الرسول ﷺ باستظهار القرآن تفوق الوصف وتوفي على الغاية حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها.

وثانيها: أن النبي ﷺ كان يصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

ثالثها: أن القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجما في مدى عشرين سنة أو أكثر.

رابعها: أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله فقد علمت أن نزوله كان على حسب الأسباب أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات.

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرحنا لكان عرضة لتغير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ أو حدث سبب، مع أن الظروف لا تساعد وأدوات الكتابة ليست ميسورة والتعويل كان على الحفظ قبل كل شيء، ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول وأمن النسخ وتقرر الترتيب ووجد من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف وفق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظا للقرآن وحياطة لأصل التشريع الأول مصداقا لقوله سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]

وقد ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني وجوهاً في فعل أبي بكر من أجودها:

=

=

الأول: أن الله أخبر أنه في الصحف الأولى، وأنه عند محمد في مثلها بقوله : {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} [البينة: ٢، ٣] فهذا اقتداء بالله وبرسوله .

الثاني: أنهم قصدوا بذلك تحقيق قول الله : {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩] فقد كان عنده محفوظا، وأخبرنا أن يحفظه بعد نزوله، ومن حفظه تيسير الصحابة لجمعه، واتفاقهم على تقييده وضبطه .

الثالث: أن النبي ﷺ كان يكتبه كتبته بإملائه إياه عليهم، وهل يخفى على متصور معنى صحيحا في قلبه أن ذلك كان تنبيها على كتبه وضبطه بالتقييد في الصحف، ولو كان ما ضمنه الله من حفظه لا عمل للأمة فيه لم يكتبه رسول الله ﷺ بعد إخبار الله له بضمان حفظه، ولكن علم أن حفظه من الله بحفظنا وتيسيره ذلك لنا وتعليمه لكتابته وضبطه في الصحف بيننا .

الرابع: أنه ثبت "أن النبي ﷺ نهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو"؛ وهذا تنبيه على أنه بين الأمة مكتوب مستصحب في الأسفار، قال أبو بكر بن العربي : هذا من أبين الوجوه عند النظار (انظر "أحكام القرآن" (٢ / ٦١٢) .

حالات تركه ﷺ:

الحالة الأولى: أن يترك ﷺ الفعل لعدم وجود المقتضي له، وذلك كـ: تركه قتال مانعي الزكاة، فهذا الترك لا يكون سنة، بل إذا قام المقتضي ووجد كان فعل ما تركه ﷺ مشروعًا غير مخالف لسنته، كـ: قتال أبي بكر ﷺ لمانعي الزكاة، بل إن هذا العمل يكون من سنته لأنه عمل بمقتضى سنته ﷺ

بشرط ألا يكون وجود هذا المقتضي إنما حصل بتفريط الناس كـ: تقديم الخطبة على الصلاة في العيدين، فإنه قد فعل ذلك بعض الأمراء (هو: مروان بن الحكم، فعل ذلك لما كان أميرًا للمدينة في عهد معاوية ﷺ (انظر: "صحيح البخاري" برقم (٩٥٦) واعتذر بأن الناس قد صاروا ينفضون قبل سماع الخطبة، وكانوا على عهد رسول الله ﷺ لا ينفضون حتى يسمعوا، أو أكثرهم)

=

=

الحالة الثانية: أن يترك ﷺ الفعل مع وجود المقتضي له بسبب قيام مانع، كـ: تركه ﷺ فيما بعد قيام رمضان جماعة بسبب خشيته أن يُكتب على أمته؛ فهذا الترك لا يكون سنة، بل إذا زال المانع بموته ﷺ كان فعل ما تركه ﷺ مشروعًا غير مخالف لسنته، كما فعل عمر ﷺ في جمعه للناس على إمام واحد في صلاة التراويح، بل إن هذا العمل من سنته ﷺ لأنه عمل بمقتضاها، ولم يكن هذا الاجتماع بهذه الهيئة مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ

وهكذا جَمْع القرآن، فإن المانع من جمعه كان على عهد رسول الله ﷺ أن الوحي لا يزال يتزل فيغير الله ما يشاء ويُحكم ما يريد، فلو جُمع في مصحف واحد لتعسر أو تعذر تغييره كل وقت، فلما استقر القرآن بموته أمن الناس من زيادة القرآن ونقصه.

الحالة الثالثة: أن يترك ﷺ الفعل مع وجود المقتضي له وانتفاء الموانع، فيكون تركه ﷺ والحالة كذلك سنة، كـ: تركه ﷺ الأذان لصلاة العيدين ("مجموع الفتاوى" (١٧٢/٢٦)، و"اقتضاء الصراط المستقيم" (٥٩١/٢ - ٥٩٧)

(وانظر: كتاب "المدخل لدراسة القرآن الكريم" لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ)

حكم اتباع الرسم العثماني

اختلف العلماء هل رسم المصاحف توقيفي من النَّبِيّ ﷺ؟ أم اجتهادي؟ والرأي الذي تطمئن إليه النفس هو رأي الجمهور الذين ذهبوا إلى أن خط المصاحف توقيف، ولا تجوز مخالفته، ويترجح هذا الرأي بإجماع الصحابة ومن بعدهم على كتابة المصاحف على هذه الهيئة المعلومة، وعلى رفض ما سواها، فلا يُعتبَر بعد إجماع أهل القرون الأولى خلاف من خالف بعد ذلك، ولا يجوز خرق إجماعهم؛ لأن الإجماع لا يُنْسَخُ، ويؤيد ذلك:

- أن الرسم الإملائي اصطلاح، والاصطلاح قد يتغير مع تغير الزمان، كما أن قواعد الإملاء تختلف فيها وجهات النظر، فيؤدي ذلك إلى التحريف والتبديل في كلام الله تعالى، فلو أن أهل كل زمانٍ اصطلحوا في كتابة المصاحف على اصطلاح

=

=

يناسب ما يألفونه من قواعد الإملاء، ثم أتى جيلٌ بعدهم فاصطلح على اصطلاح آخر يناسب ما استجدَّ من القواعد، وانقطعت صلة الأجيال المتتابعة بالمصاحف التي كتبها الصحابة، لو حدث ذلك لوصلنا خلال عقود قليلة إلى نصٍّ مشوَّهٍ من القرآن، وحينئذ لن يستطيع الناس تَمييز القراءة الصحيحة من غيرها، ويؤدي ذلك إلى تحريف كتاب الله، ويحصل الشكُّ في جميعه، فهذا الرسم العثماني هو أقوى ضمان لصيانة القرآن من التغيير والتبديل (انظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١٤٩)

قال الدباغ: وأما قول من قال: إن الصحابة اصطلحوا على أمر الرسم المذكور، فلا يخفى ما فيه من البطلان؛ لأن القرآن كُتِب في زمان النَّبيِّ ﷺ وبين يديه، وحينئذ فلا يخلو ما اصطلح عليه الصحابة، إما أن يكون هو عين الهيئة التي كُتِبَت بين يدي النَّبيِّ ﷺ أو غيرها، فإن كانت عينها بطل الاصطلاح؛ لأن أسبقية النَّبيِّ ﷺ تنافي ذلك، وتوجب الاتباع.

وإن كان غير ذلك، فكيف يكون النَّبيِّ ﷺ كتب على هيئة، كهيئة الرسم القياسي مثلاً، والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ **فلا يصحُّ ذلك لوجهين:**

أحدهما: نسبة الصحابة إلى المخالفة، وذلك مُحالٌ.

ثانيهما: أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن، ولا نقصان حرفٍ منه، وما بين الدفتين كلام الله تعالى، فإذا كان النَّبيِّ ﷺ أثبت ألف (الرحمن) و(العالمين) مثلاً، ولم يزد الألف في (مائة)، ولا في (لأاوضعوا)، ولا الياء في (بأييدٍ) ونحو ذلك، والصحابة عاكسوه في ذلك وخالفوه، لزم أنهم – وحاشاهم من ذلك– تصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان، ووقعوا فيما أجمعوا هم وغيرهم على ما لا يحلُّ لأحدٍ فعلهُ، ولزم تطرُّق الشكِّ إلى جميع ما بين الدفتين؛ لأنا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما في علم النَّبيِّ ﷺ وعلى ما عنده، وأنها ليست بوحيٍ، ولا من عند الله، ولا نعلمها بعينها –شككنا في الجميع، ولئن جوزنا لصحابيٍ أن يزيد في كتابته حرفًا ليس بوحيٍ، لزمنا أن نجوز =

=

لصحابي آخر نقصان حرف من الوحي؛ إذ لا فرق بينهما، وحينئذٍ تنحل عروة الإسلام بالكلية .

٣- العلاقة الواضحة بين هذا الرسم العثماني، وبين القراءات القرآنية المتواترة، يدرك هذا من كان له أدنى معرفة بعلم القراءات، إذ يلاحظ بوضوح أن الصحابة عندما خالفوا القياس في الخط، إنَّما كان ذلك لِمقاصد تتعلق بِما ثبتت روايته عن النَّبيِّ ﷺ من أوجه القراءة في العرضة الأخيرة، ومن أمثلة ذلك:

- كتبوا في الفاتحة (ملك يوم الدين) دون ألف في (ملك) لتحتمل الوجهين من القراءة بالألف (مالِكِ)، وبدونها (مَلِكِ).

- كتابتهم تاء التأنيث بالتاء المفتوحة في بعض المواضع نحو (امرأت)، و(رحمت)، و(نعمت)، فيقف عليها جمهور القراء بالتاء، ولو كتبت بالهاء المربوطة، لَتَغَيَّرَ حكمُ الوقف عليها (انظر التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية ص ٢٧-٢٩)

وفي ختام هذه المسألة أنوِّه على أنه ليس هناك صعوبة تذكر على قارئ القرآن الكريم، بعد ما أضيف إلى صورة الرسم من رموز النقط والشكل، التي أوضحت مشكله، وأعانت على سلامة النطق به، وقد مرت القرون على المسلمين، وهم يكتبون المصاحف على ما رسم الصحابة، و لم يؤدِّ ذلك إلى خطأ في تلاوة القرآن، أو وقوع تحريف، فلله الحمد والمنَّة.

التفسير

التفسير:

لغة: من "الفَسْر"، وهو: الكشف عن المغطى.

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم.

وتعلم التفسير واجب:

- لقوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]
- ولقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]

وجه الدلالة من الآية الأولى: أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها، والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها، ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها، وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذي كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر

آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنْ الْعِلْمِ كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ، وَلَا يستشرحوه فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ" ١

ويجب على أهل العلم، أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة لقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧] وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه.

والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليعبد الله بها على بصيرة ٢

١- مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢)

٢- هل فسر النبي ﷺ كل كلمة من القرآن؟ إن النبي ﷺ قد بين للصحابة الكرام ما كان يحتاج إلى بيان من كتاب الله تعالى كالأحكام المجملة مثل الزكاة والصلاة وغيرها، ولم يفسر كل آية وكل كلمة لأن الصحابة ﷺ كانوا يفهمون ذلك بسليقتهم، قال الطبري: فأما ما لا بد للعباد من علم تأويله فقد بينه لهم نبيهم ﷺ ببيان الله ذلك له) وما نقل من أسباب بالنزول محصور، وأيضا فليست كل آية أو كل سورة لها سبب نزول، وقد ألف العلماء في ذلك كتبا وأفردوه بأبواب خاصة ضمن كتبهم، كما نقلوا تفسيره ﷺ وبيانه لما فسر من الآيات وبين.

الواجب على المسلم في تفسير القرآن

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون معظما لهذه الشهادة خائفا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيخزى بذلك يوم القيامة:

- قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]

- وقال تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر: ٦٠]

المرجع في تفسير القرآن

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي: ١

أ- كلام الله تعالى: فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به، ولذلك أمثلة منها:

١- قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢] فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٣] ٢

١- ورد عن ابن عباس ﷺ أن التفسير أربعة: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألسنتها، وتفسير تفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

قال الزركشي في البرهان ما ملخصه: هذا تقسيم صحيح:

١- فأما ما لا يعذر أحد بجهله فهو ما تبادر إلى الأفهام معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: ١٩] أنه لا شريك له في الألوهية وإن لم يعلم أن لا موضوعة في اللغة للنفي وإلا موضوعة للإثبات، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ٤٣] ونحوه طلب إيجاب المأمور به، وإن لم يعلم أن صيغة افعل للوجوب.

٢- وأما الذي تعرفه العرب بألسنتها فهو ما يرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب.

٣- وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم: فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل وذلك باستنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم.

٤- وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى: فهو ما يجري مجرى الغيوب كالآيات التي تذكر فيها الساعة والروح والحروف المقطعة.

٢- في مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤): "فَكُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا".

٢- قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} [الطارق: ٢] فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: {النَّجْمُ الثَّاقِبُ} [الطارق: ٣]

٣- قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [النازعات: ٣١، ٣٢]

ب- كلام رسول الله ﷺ فيفسر القرآن بالسنة، لأن رسول الله ﷺ مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كلامه، **ولذلك أمثلة منها:**

١- قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦] ففسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحا من حديث أبي موسى (إسناده ضعيف) وأبي بن كعب (إسناده ضعيف) ورواه جرير من حديث كعب بن عجرة (إسناده ضعيف) في "صحيح مسلم" عن صُهَيْب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: "فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ"، ثم تلا هذه الآية {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٦]

٢- قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] فقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي، رواه مسلم، وغيره من حديث عقبة بن عامر ﷺ [١]

١- في صحيح مسلم، عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ».

مثال آخر: في الصحيحين، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ قَالَ لَيْسَ كَمَا =

ج- كلام الصحابة ﷺ لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب، ولذلك أمثلة كثيرة جدا منها:

- قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [النساء: ٤٣] فقد صح عن ابن عباس ﷺ: أنه فسر الملامسة بالجماع ١

د- كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة ﷺ ٢ لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم، ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا أجمعوا -يعني التابعين- على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض

تَقُولُونَ {لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} بِشِرْكٍ أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ {يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣].

١- وهذا الذي رجّحه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [المائدة: ٦] حيث قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول مَن قال: عَنى الله بقوله: {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [المائدة: ٦] الْجِمَاع دون غيره مِن مَعانِي اللمْس، لِصِحَّةِ الْخَبَرِ عن رسول الله ﷺ أنه قَـبَّل بَعض نسائه ثم صلى و لم يتوضأ، وكذلك تَقبيل الرَّجُل امْرأته، والمرأة زوجها؛ كل ذلك لا ينقض الوضوء، والله تعالى أعلم.

٢- مثال ذلك: ما ذكره البخاري في كتاب التوحيد: قال أبو العالية: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: ٢٩] أي ارتفع، وقال مجاهد: استوى: علا على العرش.

ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وقال أيضا: مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ بَلْ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ ثم قال: فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ، فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا ١

هـ- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق: لقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء: ١٠٥] وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ٣] وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: ٤] فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به ٢

١- أخطأ في الدليل حيث حمله على ما لم يعرفه الصحابة ﷺ وأخطأ في المدلول حيث أحدث ما لم يكن معروفا عند الصحابة.

في مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٢): "**وَأَمَّا الَّذِينَ يُخْطِئُونَ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ** فَمِثْلُ كَثِيرٍ مِنْ الصُّوفِيَّةِ وَالْوُعَّاظِ وَالْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِمَعَانٍ صَحِيحَةٍ؛ لَكِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا... **وَإِنْ كَانَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مَا هُوَ مَعَانٍ بَاطِلَةٌ** فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْخَطَأُ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا حَيْثُ يَكُونُ الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدُوهُ فَاسِدًا".

٢- قاعدة: ألفاظ الشارع محمولة على المعاني الشرعية فإن لم تكن فالعرفية فإن لم تكن فاللغوية، والسبب أن الشارع يبين الشرعيات فألفاظه ينبغي أن تكون محمولة على عرفه، فإن لم يكن للشارع معنى خاص فإننا ننتقل إلى المعنى العرفي، والمقصود =

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [التوبة: ٨٤] فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيقدم المعنى الشرعي، لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر ١

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١٠٣] فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم، صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى".

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

= بالمعنى العرفي: عرف المتخاطبين بالقران، فإن لم يكن فنرجع إلى المعنى اللغوي، وبهذا يتبين خطأ تفسير القران بالمعنى اللغوي مباشرة.

١- قال تعالى {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية:

مثاله: قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣] قال ابن عباس: قضي: أمر، وقال مجاهد: وصى، وقال الربيع بن أنس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، أو متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية ١

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع.

مثاله: قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء، والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها، لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

١- مثال آخر: قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة: ٦] قيل الصراط المستقيم: هو اتباع النبي ﷺ وقيل هو: اتباع طريق أبي بكر وعمر، وقيل هو: الإسلام، وقيل هو: اتباع القرآن، وقيل هو: اتباع كتاب الله، وفي تفسير ابن كثير (١/ ٥٢): "وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ، فإن من اتبع الإسلام فقد اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَاقْتَدَى بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْحَقَّ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ فَقَدِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ".

ومثال آخر: قوله تعالى {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤] قال ابن عباس: دهاقاً مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية، ولا منافاة بين هذه الأقوال ١ والآية تحتملها فتحمل عليها جميعاً، ويكون كل قول لنوع من المعنى.

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معا للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلاله السياق أو غيره:

مثال ذلك: قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣] قال ابن عباس ﷺ: غير باغ في الميتة ولا عاد في أكله ٢ وقيل: غير خارج على الإمام ولا عاص بسفره، والأرجح الأول، لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحل ما ذكر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السَّفَرِ الْمُحَرَّمِ ، وغير ذلك ٣

١- الكأس موصوف بأنه مملوء، وموصوف بأنه صاف، وموصوف بأنه متتابعة.

٢- أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: الْمُرَادُ بِالْبَاغِي الَّذِي يَبْغِي الْمُحَرَّمَ مِنْ الطَّعَامِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْحَلَالِ، وَالْعَادِي الَّذِي يَتَعَدَّى الْقَدْرَ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ (مجموع الفتاوى ١١٠/٢٤)

٣- في مجموع الفتاوى (١١٠/٢٤): "وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ إلَى أَنَّ "الْبَاغِيَ" هُوَ الْبَاغِي عَلَى الْإِمَامِ الَّذِي يَجُوزُ قِتَالُهُ وَ "الْعَادِيَ" هُوَ الْعَادِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ الْمُحَارِبُونَ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ، قَالُوا فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْمَيْتَةَ لَا تَحِلُّ لَهُمْ فَسَائِرُ الرُّخَصِ أَوْلَى، وَقَالُوا إذَا اُضْطُرَّ الْعَاصِي بِسَفَرِهِ أَمَرْنَاهُ أَنْ يَتُوبَ وَيَأْكُلَ وَلَا نُبِيحُ لَهُ إتْلَافَ نَفْسِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْرُوفٌ عَنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد...

أَمَّا الْآيَةُ فَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: الْمُرَادُ بِالْبَاغِي الَّذِي يَبْغِي الْمُحَرَّمَ مِنْ الطَّعَامِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْحَلَالِ، وَالْعَادِي الَّذِي يَتَعَدَّى الْقَدْرَ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ هُوَ =

ومثال آخر: قوله تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} [البقرة: ٢٣٧] قال علي بن أبي طالب ﷺ: في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الولي، والراجح الأول: لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد روي فيه حديث عن النبي ﷺ ١

=

الصَّوَابُ دُونَ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ: الْأَنْعَامِ وَالنَّحْلِ وَفِي الْمَدَنِيَّةِ: لِيُبَيِّنَ مَا يَحِلُّ وَمَا يُحَرَّمُ مِنَ الْأَكْلِ وَالضَّرُورَةُ لَا تَخْتَصُّ بِسَفَرٍ، وَلَوْ كَانَتْ فِي سَفَرٍ فَلَيْسَ السَّفَرُ الْمُحَرَّمُ مُخْتَصًّا بِقَطْعِ الطَّرِيقِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الْإِمَامِ وَلَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إِمَامٌ يَخْرُجُ عَلَيْهِ وَلَا مِنْ شَرْطِ الْخَارِجِ أَنْ يَكُونَ مُسَافِرًا وَالْبُغَاةُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِقِتَالِهِمْ فِي الْقُرْآنِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُسَافِرِينَ وَلَا كَانَ الَّذِينَ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِمْ أَوَّلًا مُسَافِرِينَ؛ بَلْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْعَوَالِي مُقِيمِينَ وَاقْتَتَلُوا بِالنِّعَالِ وَالْجَرِيدِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُفَسَّرَ الْآيَةُ بِمَا لَا يَخْتَصُّ بِالسَّفَرِ وَلَيْسَ فِيهَا كُلُّ سَفَرٍ مُحَرَّمٍ؟ فَالْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ لَوْ كَانَ كَمَا قِيلَ لَمْ يَكُنْ مُطَابِقًا لِلسَّفَرِ الْمُحَرَّمِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ بِلَا سَفَرٍ وَقَدْ يَكُونُ السَّفَرُ الْمُحَرَّمُ بِدُونِهِ"

١- قال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي قال: "ولي عقد النكاح الزوج" (ضعيف من أجل ابن لهيعة، وقد قال البيهقي: غير محفوظ) والأصل في الكلام التأسيس وعدم التكرار والتوكيد، ولأن الذي يملك عقدة النكاح هل يملك أن يعفو عن نصف مهر المرأة؟ إن كان الأب ففيه نظر، هل يملك أن يسقط حقها؟ وإن كان غير الأب فلا حق له مطلقا أن يعفو.

المقصود الزوج وليس الولي، لأن سياق الآية يفهم منه أن المقصود به هو الزوج، مع أن بعض المفسرين قالوا: إنه ولي الزوجة، **ولنا:** أن نعرف أن الولي ليس له أن يعفو في مسألة مهر المرأة؛ لأن المهر من حق الزوجة، وهل من المنطقي أن تعفو =

=

النساء أو يعفو الذي بيده عقد النكاح يعني أولياء الزوجة، فنجعل العفو يأتي من الزوجة ومن أوليائها؛ أي من جهة واحدة؟ إن علينا أن نحسن الفهم لسياق الفضل الذي قال الله فيه: {وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} [البقرة: ٢٣٧] إن التقابل في العفو يكون بين الاثنين، بين الرجل والمرأة، ونفهم منه المقصود بقوله تعالى {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} [البقرة: ٢٣٧] أنه هو الزوج، فكما أن للمرأة أن تعفو عن النصف المستحق لها، فللزوج أن يعفو أيضا عن النصف المستحق له.

المفسر عند تفسيره لآية من القرآن يسلك أحد مسلكين :

المسلك الأول: التفسير بالمأثور، وتعريفه أنه: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة، وتفسير القرآن بأقوال التابعين = مصطلحٌ معاصر.

وقد جُعِلَ مصطلح التفسير بالمأثور هذا مقابلاً للتفسير بالرأي؛ أي أنَّ ما لم يكن من التفسير بهذه الأنواع الأربعة، فهو من التفسير بالرأي، ويلاحظ على هذا المنهج من التفسير – عموماً – أنه يعتمد على الرواية الثابتة في تفسير القرآن الكريم، سواء أكانت تلك الرواية نصاً من القرآن أو السنة، أم قولاً لصحابي أو تابعي.

التفسيرَ المأثورَ عن السلف على قسمين:

القسم الأول: المنقول المحض الذي لا يمكن أن يرد فيه اجتهاد، ويشمل تفسيرات النبي وأسباب النُّزول وقصص الآي والغيبيات.

القسم الثاني: ما كان لهم فيه اجتهاد، ويظهر فيما يرد عليه الاحتمال من التفسير.

وما دام في تفسيرهم رأي، فما نوع الرأي الذي عندهم، وما نوع الرأي الذي جاء بعدهم ؟

– أما الرأي الوارد عنهم، فهو من قبيل الرأي المحمود؛ لأنهم لم يكونا يقولون في القرآن بغير علم، كما لم يكن عندهم هوى مذهبي يجعلهم يحرفون معاني الآيات إلى ما يعتقدونه، فلما سلِموا من هذين السببين اللذين هما من أكبر أسباب الوقوع في التحريف في التفسير، وكانوا يفسرون كلام الله على علمٍ، كان رأيهم محمودًا في =

=

التفسير، ووجود قول ضعيف في تفسيرهم لا يعني أنه من الرأي المذموم، وما ورد من تفسيرات غريبة عن بعضهم؛ أعني بعض تفسيرات مجاهد (ت:١٠٤) لمسخ بني إسرائيل قردة وخنازير، والميزان، والنظر إلى وجه الله إنما هي أفراد في تفاسيرهم، وهي نادرة لا تكاد تذكر.

وأما الرأي الذي جاء بعد تفسير السلف فهو على قسمين:

القسم الأول: رأيٌ محمودٌ، وهو المبني على علم، وهو نوعان:

النوع الأول: الاختيار من أقوالهم بالترجيح بينها إذا دعى إلى ذلك داعٍ، بشرط أن يكون المرجِّح ذا علم، ولا يختار من أقوالهم حسب هواه وميوله، ولا بدَّ أن يكون المرجِّح على علم بأنواع ما يقع من الاختلاف عنهم، وهو قسمان:

القسم الأول: أن يكون الخلاف راجعا إلى معنى واحدٍ، ويكون الخلاف بينهم خلاف عبارة، ويدخل الرأي هنا في توجيه أقوالهم على كونها على قول واحد ولا خلاف حقيقي ولا معتبر فيها.

القسم الثاني: أن يكون الخلاف بينهم راجعا إلى أكثر من معنى، فاختيار أحد هذه المعاني من المفسرين الذين جاءوا بعدهم إنما يكون برأي واجتهادٍ، كما فعل الطبري (ت: ٣١٠)

النوع الثاني: الإتيان بمعنى جديد صحيح لا يناقض تفسيرهم، ولا يقصر معنى الآية عليه، ولا شكَّ في أن المعاني تنتهي، ولكن هذا لا يعني أن تفسير القرآن قد توقَّف على جيل أتباع التابعين، وأنه لا يجوز لغيرهم أن يفسِّر القرآن.

فإذا حصلت هذه الضوابط = صحَّ –والله أعلم– التفسير الجديد، وصار من التفسير بالرأي المحمود المعتمد على علمٍ، والله أعلم

وأقدم من نص على كون هذه الأربعة هي التفسير بالمأثور الشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني ثم جاء بعده الشيخ محمد حسين الذهبي.

ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور:

- جامع البيان عن تأويل القرآن، لابن جرير الطبري.

=

=

- بحر العلوم لأبي الليث، نصر بن محمد السمرقندي.
- معالم التنزيل، لأبي محمد الحسن بن مسعود البغوي.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: "والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع".
- فتح القدير، الجامع بين فَنّي الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، وهو كما هو ظاهر من عنوانه شامل للتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي.

المسلك الثاني: التفسير بالرأي، فيُقصد بهذا المنهج، تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب وأساليبهم في القول، ثم معرفته للألفاظ العربية، ووجوه دلالتها، ومعرفته بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

وللعلماء في اعتماد هذا المنهج في التفسير موقفان، الأول: يرى عدم جواز تفسير القرآن بالرأي، **والثاني:** يرى جواز التفسير بالرأي عن طريق الاجتهاد.

والمتأمل في حقيقة هذا الخلاف يرى أنه خلاف لفظي لا حقيقي، وبيان ذلك أن الرأي لا يُذم بإطلاق:

- فهناك رأي محمود، وهو ما استند إلى دليل معتبر، وهذا النوع من الرأي لا خلاف في قبوله بين أهل العلم.
- وهناك رأي مذموم، وهو ما استند إلى الهوى، ولم يكن له ما يؤيده ويسدده من العقل أو الشرع.

=

=

ولا شك أن الذين قالوا بجواز تفسير القرآن بالرأي لم يقصدوا تفسير القرآن بمطلق الرأي، وإنما قيدوه بالرأي المعتبر والمستند إلى الدليل، ولم يعتبروا أو يلتفتوا إلى الرأي المستند إلى الهوى. وبهذا يؤول الخلاف في هذه المسألة إلى خلاف لفظي ليس إلا.

ونقتصر في هذا المقام على مثال واحد لهذا النوع من التفسير، وهو ما أورده الإمام الرازي عند تفسير قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} [هود: ١٥] قال: يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق؛ لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها، والانتفاع بخيراتها وشهواتها، ثم قال: إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد هو الكافر، لأن قوله تعالى بعدُ: { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [هود: ١٦] لا يليق إلا بالكفار، وواضح أن هذا التفسير للآية يعتمد على إعمال الرأي الذي يسنده الدليل ويسدده.

ومن أهم كتب التفسير بالرأي:

- مفاتيح الغيب للفخر الرازي.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود.
- البحر المحيط، ومؤلفه أبو حيان الأندلسي الغرناطي .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي.

وبما تقدم يُعلم، أن هذا التقسيم لتفاسير القرآن الكريم، ليس تقسيمًا حديًّا وفاصلاً بين نوعي التفسير، بل هو عند التحقيق تقسيم اصطلاحي، جرى عليه أهل العلم، وخاصة المتأخرون منهم، كما قسموا مدارس الفقه، إلى مدرسة الرأي ومدرسة الحديث؛ وهم يعنون بذلك المنهجية الغالبة والسائدة في كل مدرسة من كلتا المدرستين، دون أن يعني ذلك بحال، اقتصار هذه المدرسة أو تلك على منهج الرأي فحسب أو منهج الحديث، والله أعلم.

ترجمة القرآن

الترجمة:

لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح.

وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى ١

وترجمة القران: التعبير عن معناه بلغة أخرى

والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بازائها.

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ٣]

فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمةً كلمة فيترجم (إِنَّا) ثم (جَعَلْنَاهُ) ثم (قُرْآنًا) ثم (عَرَبِيًّا) وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

حكم ترجمة القرآن: الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك أنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها ٢

١- التعبير أولى من نقل الكلام لأن الكلام ما نقل ولكن عبر عنه.

٢- يوجد في بعض اللغات حروف ساقطة، كالضاد لا توجد في اللغات الأخرى.

=

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها ١

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات٢

وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك - محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم كله فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية، لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، **لكن يشترط لجواز ذلك شروط:**

وقد ترجم بعضهم قول الله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: ١٨٧] ترجمة حرفية فقال: "هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن"، فليس المقصود باللباس هنا اللباس الحسي وإنما هو السكن والستر فكل واحد منهما ستر وسكن لصاحبه.

١- أدوات المعاني هي: أداة الاستفهام وأداة النفي وأداة التوكيد، وما أشبه ذلك.

٢- المعروف في اللغة العربية أن الخبر متأخر عن المبتدأ وفي اللغات الأخرى مقدم، المضاف والمضاف إليه في اللغة العربية المقدم المضاف وفي غيرها المضاف إليه.

الأول: أن لا تجعل بديلا عن القرآن بحيث يستغني بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة، لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالما بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالما بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن.

ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها، بحيث يكون مسلما مستقيما في دينه.

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ﷺ إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة، لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضا: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم.

١- علي بن أبي طالب ﷺ

- هو ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة ﷺ وعنها، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم، وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

- ولد قبل بعثة النبي ﷺ بعشر سنين، وتربى في حجر النبي ﷺ وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا عن غزوة تبوك، خلفه النبي ﷺ في أهله، وقال له: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"، نقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره.

- وهلك به طائفتان:

- النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبة.
- والروافض الذي بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

- اشتهر ﷺ بالشجاعة والذكاء مع العلم حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ليتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن، ومن أمثلة النحويين: قضية ولا أبا حسن لها، وروي عن علي ﷺ أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار، وقال

ابن عباس ﷺ: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به، وروي عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب ﷺ

- كان أحد أهل الشورى الذي رشحهم عمر ﷺ لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبي إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيدا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة ﷺ

***

٢- عبد الله بن مسعود ﷺ

- هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهزلي، وأمه أم عبد كان ينسب إليها أحيانا، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا، وما بعدها من المشاهد.

- تلقى من النبي ﷺ بضعا وسبعين سورة من القرآن، وقال له النبي ﷺ في أول الإسلام: "إنك لغلام معلم" (قلت إسناده جيد (المسند ٣٧٩/١)، وقال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» وفي صحيح البخاري أن ابن مسعود ﷺ قال: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَن أُنْزِلَتْ، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه، وكان ممن خدم النبي ﷺ فكان صاحب نعليه وطهوره ووسادته حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينا ما نرى عبد الله بن مسعود إلا رجلا من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمه

على النبي ﷺ ومن أجل ملازمته النبي ﷺ تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: ما أعرف أحدا أقرب هديا وسمتا ودلا بالنبي ﷺ من ابن أم عبد.

- بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة، ليعلمهم أمور دينهم، وبعث عمارا أميراً وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ فاقتدوا بهما، ثم أمره عثمان على الكوفة، ثم عزله، وأمره بالرجوع إلى المدينة، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة.

***

٣- عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

- هو ابن عم الرسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي ﷺ لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي ﷺ .

- وضمّه النبي ﷺ إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة، وفي رواية: الكتاب، وقال له حين وضع له وضوءه: اللهم فقه في الدين، فكان بهذا الدعاء المبارك حبر الأمة في نشر التفسير والفقه، حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله ١ فنال بذلك مكانا عاليا حتى كان

١- طلبه للعلم وتحمله الشدائد في تحصيله: يقول رضي الله عنه: (لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبا لك يا ابن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى؟ فترك ذلك، وأقبلت على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفى الريح علي التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يابن عم رسول الله! ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسألك، قال: فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس علي: فقال: (هذا الفتى أعقل مني).

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مجالسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر:١] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك، واستغفره إنه كان توابا، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

- وقال ابن مسعود ﷺ: لنعم ترجمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، أي ما كان نظيرا له، هذا مع أن ابن عباس ﷺ عاش بعده ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم.

- وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقها وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع.

- وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس ﷺ وهو على الموسم (أي وال على موسم الحج من عثمان ﷺ) فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت، وَلَا سَمِعْتُ كَلَامَ رَجُلٍ مِثْلِهِ، ولَوْ سَمِعَتْهُ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالتُّرْكُ لَأَسْلَمَتْ، ولاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين

- وولاه علي ﷺ على البصرة فلما قتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمان وستين عن إحدى وسبعين سنة ١

١- وفاته: في سنة ٦٨هـ توفي ابن عباس البحر، وكان عمره ٧١هـ، وكان مرضه ثمانية أيام.

استنتج من سيرة ابن عباس ﷺ الأشياء التي أبرزت شخصيته؟

- المثابرة في تحصيل العلوم النافعة واحترام العلماء وإنزالهم منزلتهم، **الشاهد:** حينما كان يجلس عند الباب ينتظر شيخه يخرج.

- أدبه مع الرسول ﷺ **الشاهد:** حينما صلى بجانب رسول الله ﷺ جره حذاءه فرجع خلفه.

- ملازمته للرسول ﷺ **الشاهد:** رأى جبريل مرتين عند الرسول ﷺ

- إكرامه للأكابر من صحابة رسول الله ﷺ **الشاهد:** قوله كنت أكرم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وأسألهم عن مغازيه، وما نزل من القرآن.

- وهو طاهر القلب، نقيّ النفس، لا يحمل لأحد ضغنا ولا غلا، وهوايته التي لا يشبع منها، هي تمنّيه الخير لكل من يعرف ومن لا يعرف من الناس، **يقول عن نفسه:** "إني لآتي على الآية من كتاب الله فأود لو أن الناس جميعا علموا مثل الذي أعلم.. وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يقضي بالعدل، ويحكم بالقسط، فأفرح به وأدعو له.. ومالي عنده قضيّة..!! وإني لأسمع بالغيث يصيب للمسلمين أرضا فأفرح به، ومالي بتلك الأرض سائمة.

- فضل العمل الصالح واغتنام فترة الشباب في تحصيل العلم والعمل به، **الشاهد:** قصته في طلب العلم.

- مطابقة القول العمل، وأن يحرص العالم على تبليغ العلم إلى الناس، ويكون هدفه من وراء ذلك ابتغاء وجه الله رب العالمين.

المشتهرون بالتفسير من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ- أهل مكة، وهم أتباع ابن عباس كمجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح.

ب- أهل المدينة، وهم اتباع أبي بن كعب، كزيد بن أسلم وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي.

ج- أهل الكوفة، وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة وعلقمة، والشعبي.

فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.

١- مجاهد

- هو مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة.

- وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس ﷺ روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها، وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءت التفسير عن مجاهد فحسبك به.

- واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيرا ما ينقل عنه في "صحيحه"، وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به.

- توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومائة، عن ثلاث وثمانين سنة.

***

٢- قتادة

- هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري، ولد أكمه أي أعمى سنة إحدى وستين.

- وجد في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال في نفسه: ما قلت لمحدث قط أعد لي، وما سمعت أذناي شيئا قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من يتقدمه أما المثل لعل، وقال: هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئا إلا حفظه ١

- وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومائة، عن ست وخمسين سنة.

١- رغم سعة علمه واطلاعه إلا أنه كان ممن انحرف في باب القدر من العقيدة، قال الإمام الذهبي رحمه الله عنه في سير أعلام النبلاء: وكان يرى القدر - نسأل الله العفو - ومع هذا، فما توقف أحد في صدقه، وعدالته، وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل، **ثم إن الكبير من أئمة العلم** إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم، ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك.

القرآن محكم ومتشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١] وقوله {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [يونس: ١] وقوله {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف: ٤]

ومعنى هذا الإحكام: الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: ٢٣]

ومعنى هذا التشابه: أن القرآن كله يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة والغايات الحميدة {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ٧]

ومعنى هذا الإحكام: أن يكون معنى الآية واضحا جليا، لا خفاء فيه، مثل:

- قوله تعالى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣]

- وقوله: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]

- وقوله: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ} [البقرة: ٢٧٥]

- وقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} [المائدة: ٣] وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبها خفيا بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله: فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضا حين يقول {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩] ويقول في موضع آخر {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [النساء: ٧٨]

ومثاله: فيما يتعلق برسول الله ﷺ أن يتوهم واهم من قوله تعالى {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس: ٩٤] ظاهره أن النبي ﷺ كان شاكا فيما أنزل إليه.

موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى:

- فقال في الزائغين: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران: ٧]

- وقال في الراسخين في العلم: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]

فالزائغون

يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيضلون، ويضلون.

وأما الراسخون في العلم

يؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض لأنه من عند الله {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢] وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المحكم ليكون الجميع محكماً.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذات لا تماثل ذوات المخلوقين، لأن الله تعالى يقول {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] ١

١- مثال فيما يتعلق بالله تعالى:

- قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى } [يس: ١٢] وقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩] ونحوهما مما أضاف الله فيه الشيء إلى نفسه بصفة =

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده، أما السيئة فعل العبد كما قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠] فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّرِهِ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّرِهِ، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لإنفكاك الجهة ١

=

الجمع، فاتبع النصراني هذا المتشابه وادعى تعدد الآلهة وقال: إن الله ثالث ثلاثة، وترك المحكم الدال على أن الله واحد.

وأما الراسخون في العلم: فيحملون الجمع على التعظيم لتعدد صفات الله وعظمها، ويردون هذا المتشابه إلى المحكم في قوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } [البقرة: ١٦٣] ويقولون للنصراني: إن الدعوى التي ادعيت بما وقع لك من الاشتباه قد كفّرك الله بها وكذبك فيها فاستمع إلى قوله تعالى: { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [المائدة: ٧٣] أي كفروا بقولهم : إن الله ثالث ثلاثة

١- مثال فيما يتعلق بكتاب الله تعالى:

- قول الله تبارك وتعالى {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣] مع قوله {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢] فيأتي الإنسان ويقول: هذا متناقض كيف يقولون {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣] ثم يقال عنهم إنهم {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢] فيضرب الآيات بعضها ببعض؛ ليوقع الناس في حيرة، لكنّ الراسخين في العلم يقولون: كله من عند الله ولا تناقض =

ويقولون في المثال الثالث: أن النبي ﷺ لم يقع منه شك فيما أنزل إليه، بل هو أعلم الناس به، وأقواهم يقينا كما قال الله تعالى في نفس السورة: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [يونس: ١٠٤] المعنى إن كنت في شك منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم وأعبد الله، ولا يلزم من قوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ} [يونس: ٩٤] أن يكون الشك جائزا على الرسول ﷺ أو واقعا منه، ألا ترى قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١] هل يلزم منه أن يكون الولد جائزا على الله تعالى أو حاصلا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلا، ولا جائزا على الله تعالى، قال الله تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٢، ٩٣] ولا يلزم من قوله تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [البقرة: ١٤٧] أن يكون الامتراء واقعا من الرسول ﷺ **لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه**، ألا ترى قوله تعالى: {وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [القصص: ٨٧] ومن المعلوم أنهم لم يصدون النبي ﷺ عن آيات الله، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك. **والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه:** التنديد بمن وقع منهم، والتحذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظن ما لا يليق بالرسول ﷺ

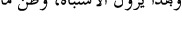

في كلام الله، **ويقولون:** إن يوم القيامة يومٌ مقداره خمسون ألف سنة، فتتغير الأحوال وتتبدل، فتُنزّل هذه على حال وهذه على حال

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر، كحقائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفيتها لقوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠] وقوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٠٣] ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] كيف استوى قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النوع الثاني: نسبي وهو ما يكون مشتبها على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوما للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذ لا يوجد في القرآن شئ لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٨] وقال {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩] وقال: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٨] وقال: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٩] وقال: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} [النساء: ١٧٤]

وأمثلة هذا النوع كثيرة:

منها: قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] حيث اشتبه على أهل التعطيل، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وادعوا أن ثبوتها

يستلزم المماثلة، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

ومنها: قوله تعالى {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣] حيث اشبته على الوعيدية، ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمدا مخلد في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى ١

١- السؤال: قال الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣] فهل في هذا دليل على خلود القاتل في النار؟

الإجابة:

- إن الله تعالى بين في كتابه العظيم حكم الشرك وحكم ما دونه، فبين سبحانه أن الشرك لا يغفر، وأنه تعالى يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] فعلم بذلك أن ما دون الشرك من المعاصي كلها تحت مشيئة الله، ويدخل فيها قتل النفس بغير حق، ويدخل فيها أكل الربا، والعقوق، وشهادة الزور، وشرب الخمر، وغير ذلك من سائر المعاصي: كالقمار وقطيعة الرحم وسائر المعاصي كلها تحت المشيئة.

- ولأن الله تعالى قد يعفو ولا ينفذ وعيده، وإخلاف الوعيد من صفات الكمال، بخلاف إخلاف الوعد، فالله لا يخلف وعده، فإنه إذا عفا -سبحانه- فله الفضل، وله الجود والكرم -سبحانه وتعالى-، ويقول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فإنجاز الموعد مما يمدح به ويثنى به، وإخلاف الإيعاد عرفاً وفضلاً ممن يمدح به، فالله -عز وجل- بين أن الشرك لا يغفر إلا لمن تاب منه، وأما ما دون ذلك فهو تحت =

=

مشيئة الله -سبحانه وتعالى-، وهذا قول أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي ﷺ ومن جاء بعدهم على نهجهم الطيب.

- خلافاً للخوارج وخلافاً للمعتزلة فإن الخوارج كفّروا بالمعاصي والكبائر، وأخرجوا بها من الإسلام، وهكذا المعتزلة أخرجوهم من الإسلام وجعلوهم منزلة بين المنزلتين، ووافقوا الخوارج في تخليدهم في النار، وهذا باطل مخالف للنصوص المتواترة عن رسول الله ﷺ كما أنه مخالف لنص القرآن في قوله -سبحانه-: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، مثقال ذرة من إيمان، وأن الله يشفع في أهل النار من الموحدين عدة شفعات، فيحد الله له حداً فيخرجهم من النار، وهذا عام لجميع أهل المعاصي، أما الشرك فلا.

ولهذا قال العلماء: إن الخلود خلودان:

الخلود الأول: خلود مؤبد، وهذا خلود الكفرة، هذا خلود مؤبد لا يخرجون من النار أبداً، كما قال الله تعالى في حقهم: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٧] وقال في حق الكفرة أيضاً: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [المائدة: ٣٧] هذه حال الكفرة.

الخلود الثاني: خلود بعض أهل المعاصي كما جاء في القاتل، وفي الزاني، في قوله -جل وعلا-: {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} [الفرقان: ٦٩] فجمع الشرك والقتل والزنى، فالخلود للمشرك خلود دائم، والخلود للقاتل والزاني والمرابي ونحوهم خلود مؤقت، **والعرب تطلق على الإقامة الطويلة خلود**، من قولهم: "أقاموا فأخلدوا"، يعني طولوا الإقامة ومدوها.

- أما إذا استحل القاتل القتل ورأى أن دماء المسلم حلال فهذا كفر وردة عن الإسلام، وهكذا من استحل الزنى أو استحل الخمر، وقد قامت عليه الحجة فهذا =

ومنها: قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج: ٧٠] حيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري ١

=

يكون كافراً ومرتداً عن الإسلام، وهكذا من استحل الربا بعد إقامة الحجة عليه يكون كافراً.

١- قوله تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج: ٧٠] الاستفهام هنا للتقرير والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه.

{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} ما: اسم موصول يدل على العموم

{إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ} يعني ما في السماء والأرض مكتوب في اللوح المحفوظ.

{إِنَّ ذَلِكَ} أي كتابة ما في السماء والأرض على الله يسير، فالجبرية الآن يقولون الإنسان مجبور على عمله ليس له إرادة ولا اختيار، وأن حركاته كتحرك الريش في الهواء، وأن من نزل من السقف في الدرج درجة درجة كالذي ألقي من السطح كلاهما ليس له إرادة.

ولا شك أن هذا قول باطل يبطله الحس ويبطله العقل والسمع:

أما السمع: أن الله أثبت في عدة آيات المشيئة للعبد والإرادة ، فقال تعالى {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢] وقال تعالى {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٨، ٢٩] والآيات كثيرة.

أما العقل: فإنه من المعلوم لو كان الله تعالى مجبرا عباده على ما يفعلون ثم يعذبهم في المخالفة لكان هذا الأمر لايليق بالله عز وجل لأنه ظلم.

=

والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكما لا اشتباه فيه

وأما الحس: فهو كل إنسان يعرف أنه يخرج ويدخل ويذهب ويجيء باختياره، ولا أرى أحدا ينكر عليه هذا.

تنقسم أفعال العباد إلى نوعين:

النوع الأول: نوع اضطراري لا اختيار فيه، ولا يجد الإنسان في نفسه القدرة على منعه، كنبضات القلب وحركة اليد المرتعشة.

النوع الثاني: نوع اختياري، يحصل باختيار الإنسان وإرادته، كأكله وذهابه ومجيئه، وهكذا.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه

لو كان القرآن كله محكما لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقا وعملا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابها لفات كونه بيانا، وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهم عند التشابه، وآخر متشابهات امتحانا للعبد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ.

فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض:

- لقوله تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت: ٤٢]

- وقوله تعالى {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]

وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرا من المنحرفين في العقائد والأعمال، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة ١

١- في نهاية هذا المبحث تنبيهات مهمة:

التنبيه الأول: اتفق العلماء على أن ليس في القرآن ما لا معنى له (انظر: "مجموع الفتاوى" (٢٨٦/١٣، ٣٩٠/١٧)، و"مختصر ابن اللحام" (٧٣)، و"شرح الكوكب المنير" (١٤٣/٢، ١٤٤)..

التنبيه الثاني: اتفق السلف على أن جميع ما في القرآن مما يفهم معناه، ويمكن إدراكه بتدبر وتأمل، وأنه ليس في القرآن ما لا يمكن أن يعلم معناه أحد، نعم قد يكون في =

=

القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم، وليس ذلك في آية معينة، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا، وذلك:

١- تارة يكون لغرابة اللفظ .

٢- وتارة لاشتباه المعنى بغيره .

٣- وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق .

٤- وتارة لعدم التدبر التام، وتارة لغير ذلك من الأسباب" (مجموع الفتاوى ١٧/ ٣٩٥ - ٤٠٠).

قال ابن تيمية في"مجموع الفتاوى" (١٧/٣٩٠): "ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ"، والدليل على ما قلناه:

١- إجماع السلف؛ فإنهم فسروا جميع القرآن، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن، إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحدًا من الناس لا يعلمه، لكن لأنه هو لا يعلمه.

٢- إن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقًا {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤] {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩] ولم يستثن منه شيئًا لا يتدبر، ولا قال: لا تدبروا المتشابه.

٣- لأن من العظيم أن يقال: إن الله أنزل على نبيه ﷺ كلامًا لم يكن يفهم معناه، لا هو ولا جبريل عليه السلام.

٤- لأن الكلام إنما المقصود به الإفهام؛ فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثًا وباطلاً، والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث.

التنبيه الثالث: اتفق السلف على أن في القرآن ما لا يعلم تأويله إلا الله، كالروح، ووقت الساعة، والآجال، وهذا قد يسمى بالمتشابه، والمراد بالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله: معرفة الشيء على حقيقته وما يؤول إليه، أما التأويل بالمعنى الآخر: وهو تفسير الشيء ومعرفة معناه، فهذا مما يعلمه أهل العلم، فإنهم يعلمون معنى الكلام =

=

الذي أخبر به عن الساعة، قال ابن تيمية في"مجموع الفتاوى" (٣٨١/١٧): "وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذي هو تفسيره، وأما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة في الخارج فتلك لا يعلمها إلا الله".

التنبيه الرابع: أسماء الله تعالى وصفاته تكون من المتشابه باعتبار كيفيتها، وليست من المتشابه باعتبار معناه، كقوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] لأن معناها معلوم في اللغة العربية وليس متشابهاً، ولكن كيفية اتصافه جل وعلا بها ليست معلومة للخلق، فالاستواء إذا عدى بعلى معناه في لغة العرب الارتفاع والاعتدال، ولكن كيفية اتصافه جل وعلا بهذا المعنى المعروف عند العرب لا يعلمها إلا الله جل وعلا، كما أوضح هذا التفصيل إمام دار الهجرة مالك بن أنس تغمده الله برحمته، بقوله "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول" فهو يوضح أن أصل صفة الاستواء ليست من المتشابه، وأن كيفية الاتصاف تدخل في المتشابه بناء على تفسيره بما استأثر الله تعالى بعلمه.

التنبيه الخامس: الوقف على لفظ الجلالة في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: ٧] يصح بناءً على أن التأويل بمعنى معرفة الشيء على حقيقته، ويجوز الوصل وترك الوقف بناءً على أن التأويل بمعنى التفسير والبيان.

التنبيه السادس: طريقة السلف في التعامل مع المحكم والمتشابه: قال ابن تيمية (انظر: "مجموع الفتاوى" (١٣، ١٤٥، ١٤٦): "والمقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقل...ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا، وتجعل أقول الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ: يَحتمل كذا وكذا، ويَحتمل كذا وكذا؛ فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول ﷺ قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رُد"

التنبيه السابع: طريقتان للمبتدعة في التعامل مع المحكم والمتشابه:

الطريق الأول: رد السنن الثابتة عن النبي ﷺ بالمتشابه من القرآن أو من السنة.

=

=

الطريق الثاني: جعل المحكم متشابهًا ليعطلوا دلالته، **قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٦/٢)** ولهذا قال: {ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ} أي: الإضلال لأتباعهم، إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} [الزخرف : ٥٩] وبقوله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران : ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله، وقوله: {وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} أي: تحريفه على ما يريدون" انتهى

موهم التعارض في القرآن

التعارض في القرآن: أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل: أن تكون إحداهما مثبتة لشئ والأخرى نافية له.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون إحداهما كذبا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧] {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢] ١

١- نصراني يقول: نجد في سورة "الشعراء" يذكر أن فرعون هلك بالغرق، بينما يذكر في سورة يونس {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [يونس: ٩٢] فأيهما الصحيح؟

والجواب: أن ما ظنه هذا المجادل من أن هناك تعارضاً أو تناقضاً بين إخبار الله تعالى عن فرعون أنه مات غرقاً، وبين قوله تعالى {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس: ٩٢] فهو عجيب، فغرق فرعون يقين لا شك فيه، وقد مات في هذا الغرق وهلك هلاكاً بيِّناً، والسؤال لذاك النصراني: هل كل من يهلك في البحر غرقاً تأكله أسماك القرش وتضيع جثته في قاع البحر، أم يمكن أن يموت غرقاً ثم تطفو جثته وتنجو من التحلل والضياع؟ والجواب اليقيني: منه هو الثاني، **يقول ابن كثير رحمه الله:** (قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح، وعليه درعه المعروفة، على نجوة من الأرض، وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ} [يونس: ٩٢]) أي: نرفعك على مكان بارز من الأرض {بِبَدَنِكَ} [يونس: ٩٢] قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا: =

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حكمي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى، قال الله تعالى {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: ١٠٦] وإذا ثبت النسخ كان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وجب عليك التوقف، وتكل الأمر إلى عالمه، وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، بينوا الجمع في ذلك، ومن أجمع ما رأيت في هذا الموضوع كتاب "دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

– **فمن أمثلة ذلك**: قوله تعالى في القرآن: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢] وقوله فيه: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ} [البقرة: ١٨٥] فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، **والجمع بينهما**:

– أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع،

– والهداية في الثانية هداية البيان والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين، قوله تعالى في الرسول ﷺ {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦] وقوله فيه {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢] فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.

– **ومن أمثلة ذلك**: قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ} [آل عمران: ١٨] وقوله {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: ٦٢]

= أي لم يتمزق، ليتحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك، وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم والله أعلم.

وقوله: {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} [الشعراء: ٢١٣] وقوله: {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [هود: ١٠١] ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره، **والجمع بين ذلك:**

- أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق.

- وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢]

- ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} [الأعراف: ٢٨] وقوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: ١٦] ففي الآية الأولى نفي أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق، **والجمع بينهما:**

- أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعا بالفحشاء لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠]

- والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته قلوه تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]

ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفا.

القسم

القسم: بفتح القاف والسين.

اليمين: وهو: تأكيد الشيء بذكر معظم بالواو، أو إحدى أخواتها.

وأدواته ثلاث:

أولا: الواو: مثل قوله تعالى: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ} [الذاريات: ٢٣] ويحذف معها العامل وجوبا، ولا يليها إلا اسم ظاهر ١

ثانيا: والباء: مثل قوله تعالى {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: ١] ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢] ٢ ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين ٣

ثالثا: والتاء: مثل قوله تعالى: {تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} [النحل: ٥٦] ويحذف معها العامل وجوبا، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: ترب الكعبة لأحجن إن شاء الله.

والأصل ذكر المقسم به، وهو كثير كما في الأمثلة السابقة ٤

---

١ - لا بد أن يحذف معها فعل القسم.

٢- أين فعل القسم؟ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ أقسم لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.

٣ - الباء للقسم بدليل قوله أحلف لينصرن المؤمنين.

٤- مثال ذلك:

- قوله تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} [النحل: ٣٨]
- قوله تعالى {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ} [الذاريات: ٢٣]
- قوله تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: ٩٢، ٩٣]

وقد يحذف وحده، مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن ١

وقد يحذف مع العامل وهو كثير، مثل قوله تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر:٨) ٢

والأصل ذكر المقسم عليه، وهو كثير ٣

مثل: قوله تعالى: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ} [التغابن: ٧] ٤

وقد يحذف جوازا، مثل قوله تعالى: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} [ق: ١] وتقديره ليهلكن ٥

وقد يحذف وجوبا:

إذا تقدمه، أو اكتنفه ٦ ما يغني عنه، قاله ابن هشام في المغني، ومثل له بنحو: بنحو:

- زيد قائم والله ١

١- {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٨] المقسم به محذوف، والتقدير ثم والله لَتُسْأَلُنَّ، وكـ: "حلفت لتقومن".

٢- التقدير: ثم والله لتسئلن.

٣- الغالب في المقسم عليه أن يكون في الكلام، لأنه المقصود بالتحقيق.

٤- قال تعالى: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس: ٥٣] وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سبأ: ٣]

٥- أقسم الله تعالى بالقرآن الكريم ذي المجد والشرف {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق: ٢] بل عجب المكذبون للرسول ﷺ أن جاءهم منذر منهم ينذرهم عقاب الله، فقال الكافرون بالله ورسوله: هذا شيء مستغرب يتعجب منه.

٦- يعني صار القسم بين أجزاء الجملة التي تدل عليه.

- وزيد والله قائم.

وللقسم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسم به.

والثانية: بيان أهمية المقسم عليه، وإرادة توكيده.

ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب مترددا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب منكرا له.

١- معناه: والله إن زيدا لقائم.

الْقَصَصُ

الْقَصَصُ والقَصُّ: لغة: تتبع الأثر ١

وفي الاصطلاح: الأخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضا ٢

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧] وذلك لتمام مطابقتها للواقع

وأحسن القصص: لقوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} [يوسف: ٣] وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص: لقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١] وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

– قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

١– **القَصُّ:** تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر: قال تعالى: {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} [الكهف: ٦٤] أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به، وقال على لسان أم موسى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [القصص: ١١] أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه، والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [آل عمران: ٦٢] وقال: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١] والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

٢– **قصص القرآن:** أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه (مباحث في علوم القرآن (ص: ٣١٦)

– **وقسم عن أفراد وطوائف**، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقلة الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.

– **وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ** كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:

١– بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} [القمر: ٤، ٥]

٢– بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ} [هود: ١٠١]

٣– بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ} [القمر: ٣٤، ٣٥]

٤– تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [فاطر: ٢٥، ٢٦]

٥– ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: ٨٨] وقوله: {وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧]

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [محمد: ١٠]

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: ٤٩] وقوله: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ } [إبراهيم: ٩]

***

تكرار القصص

- من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف.

- ومنها: ما يأتي متكررا حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة، وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر

وما الحكمة في هذا التكرار؟

١- بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢- توكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس.

٣- مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه، وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال

٥- ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض ١

١- يمكننا أن نفهم أهداف التكرار في ضوء الحِكَم والأسرار التالية:

١- إذا كرر القِصة الواحدة فإنما هو لفائدة اشتمل عليها كل موضع خلت منها المواضع الأخرى، ومن أمثلة ذلك: عصا موسى عليه السلام؛ ففي سورة طه وصفَها الحقُّ سبحانه بأنها {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [طه: ٢٠] وفي سورة الأعراف: {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ} [الأعراف: ١٠٧] وفي سورة النمل {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ} [النمل: ١٠] (فهي حية باعتبار ضخامتها، وثعبان من حيث الخِفة والنشاط وسرعة الحركة، وهي كأنها جان لكونها مرعبة).

٢- أن القصة المكررة تكون متجهة إلى هدف غير الهدف الذي تتجهُ إليه القصة في مواضع أخرى، أو تتحدث من جهةٍ غير الجهة التي تعرضت إليها في مواضع أخرى.. وذلك نظراً لأن القرآن الكريم كتاب هداية وعبرة، وليس كتاب سرد تاريخي، ولا متعة أدبية فارغة فتكون القصة وسيلة لتحقيق تلك الأهداف المتعددة، متجهة نحو الغرض الذي سيقت من أجله.

٣- المعالجة الحكيمة للنفوس بترسيخ العقيدة والمفاهيم الصحيحة في عقول المدعوِّين عن طريق التكرار في قالب القصص الواقعي الجذاب، ولقد قرر علم النفس الحديث أن الشيء يرسخ في النفس بتكراره مِرارًا مالا يرسخ بعرضه مرة واحدة أو مرتين.. لاسيما إن كان جديداً تنفر منه طبائع المشركين، وتشذ عنه عادات الجاهلين.

٤- أن عرض الحادثة الواحدة في أساليب كثيرة متلونة وصور بيانية متنوعة، دون أن يختل نظمه، أو يضطرب معناه، أو تتفكك روعته، أو يضعف مستواه، هو مما يعجز عنه أبلغ الفصحاء، يقول الإمام الباقلاني رحمه الله تعالى في كتابه إعجاز القرآن: =

=

(إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تودي معنى واحدًا.. من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحةُ وتَبِينُ البلاغةُ).

٥- أن القرآن الكريم كما تحدَّاهم بتنوع أساليبه الكثيرة، تحداهم كذلك بمحاكاة أسلوب واحد من أساليبه الكثيرة، ولون واحد من ألوانه العجيبة، فعجزوا خاسئين، يقول الإمام الباقلاني رحمه الله تعالى في كتابه إعجاز القرآن: (ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً ومكررًا!!).

ولو ذهبنا لنضرب أمثلة لكل ما ذكرنا لطال بنا المقام وضاق عنه المقال.. (وكم من سرٍ بلاغي وحكمةٍ ومغزًى ودلالةٍ تكمن وراء ظاهرة التكرار يحسبه الفارغون فراغًا وما هو به).

ولقد ألَّفَ العلماء قديمًا وحديثًا مصنفاتٍ واسعةً في بيان (أسرار التكرار) و (الوجوه والنظائر) الواردة في القرآن الكريم، في ألفاظه وفي قصصه: كالإمام الكرماني في كتابه: (أسرار التكرار في القرآن)، والإمام ابن الخطيب الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط في كتابه: (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري في كتابه: (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن).

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى ١

وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأولى: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق، مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود ﷺ قال: قَالَ جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلاَئِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الزمر:٦٧)

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل، مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن جابر ﷺ قال: كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ فَنَزَلَتْ { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } (البقرة: من الآية ٢٢٣) ٢

١- **الإسرائيليات:** هي القصص والروايات المنقولة عن أهل الكتاب من اليهود "بني إسرائيل" أو من النصارى، **وإنما سميت بالإسرائيليات تغليبا،** لأن أكثر هذه القصص مأخوذة من بني إسرائيل.

٢- **ومثال ذلك:** كمسائل العقائد، والأخبار عن الأنبياء أو عن الكتب ونحو ذلك، فهذا يجب علينا أن لا ترويه؛ لأن روايته هي رواية لما جاء في شريعتنا خلافه، والمعتمد: ما جاء في شريعتنا؛ لأن الإسرائيليات دخل فيها الكذب في ذلك.

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ قَالَ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ} الآيَةَ (العنكبوت: من الآية ٤٦) ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي ﷺ: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" رواه البخاري.

وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شئ من أمور الدين، فإنه حرام:

- لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ، وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي" [1]

- وروي البخاري، عن عبد الله بن عباس ﷺ أنه قال: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللَّهِ تَقْرَؤُونَهُ لَمْ يُشَبْ [2] وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أَفَلاَ

١- رواه الإمام أحمد، قال الهيثمي في المجمع: فيه مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما، مشكاة المصابيح (١/ ٦٣) (حسن)

٢- **قوله: (لَمْ يُشَبْ)** على صيغة المجهول من الشوب وهو الخلط أي لم يخلط ولم يبدل ولم يغير.

يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلاَ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلاً قَطُّ يَسْأَلُكُمْ، عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ ١

موقف العلماء من الإسرائيليات: اختلفت مواقف العلماء، ولا سيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأى أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل: ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبا، فكان حاطب ليل، مثل البغوي الذي قال شيخ الإسلام ابن تيميه عن تفسيره: إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع ٢

ج- ومنهم من ذكر كثيرا منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار، مثل ابن كثير.

١- تعامل السلف مع الإسرائيليات: من يستقرئ الإسرائيليات التي وردت عن السلف، يجد الأمور الآتية:

١- أنها أخبار لا يُبنى عليها أحكام عملية.

٢- أنه لم يرد عن السلف أنهم اعتمدوا حكماً شرعياً مأخوذاً من روايات بني إسرائيل.

٣- أنه لا يلزم اعتقاد صحتها، بل هي مجرد خبر.

٤- أنَّ فيها ما لم يثبت عن الصحابة، بل عن من دونهم.

٢- حاطب الليل: الذي لا يتفقد ولا ينظر، فربما يحمل مع حطبه ثعبانا يهلكه.

د- ومنهم من بالغ في ردها و لم يذكر منها شيئا يجعله تفسيرا للقرآن كمحمد رشيد رضا ١

١- كذلك:

- الإمام الشوكاني رحمه الله (ت: ١٢٥٠هـ): من المفسرين المعاصرين يمتاز تفسيره عن غيره بقلة الإسرائيليات بل لا تكاد توجد فيه إلا للرد عليها، بل كان - رحمه الله - من أشد المفسرين انتقاداً للإسرائيليات فهو لم يدع فرصة تمر دون أن يوجه نقده اللاذع إليها.

- الإمام الألوسي رحمه الله (ت: ١٢٧٠ هـ): يمحص في تفسيره "روح المعاني" الروايات ويدقق فيه الأخبار، فيرفض الإسرائيليات رفضاً باتاً.

موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات:

- على المفسر أن يكون يقظاً أبعد حدود اليقظة، ناقداً إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من قدرة ورووية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل، كما يجب عليه أن لا ينقل عن أهل الكتاب إذا كان في سُنَّة نبينا ﷺ بيان لمجمل القرآن، فمثلاً حيث وجد لقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} [ص: ٣٤] مجمل في السُّنَّة النبوية الصحيحة وهو قصة ترك "إن شاء الله" والمؤاخذة عليه.

- على أن من الخير للمفسِّر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يُعَد صارفاً عن القرآن، وشاغلاً عن التدبر فى حكمه وأحكامه، وبدهي أن هذا أحكم وأسلم.

لخّص سيرة صحابي ممن قرأ كتب أهل الكتاب، واذكر الفوائد:

عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي

من بني قينقاع من ذرية يوسف بن يعقوب عليه السلام وكان من أعلم أحبار اليهود وهو من المبشرين بالجنة .

=

=

عبد الله بن سلام بن الحارث كان حَبْرا من علماء يهود بني قَيْنُقَاع، ثم أسلم مَقْدَمَ النبي ﷺ إلى المدينة، قال عنه الذهبي في السير: "الإمام الحَبْر، المشهود له بالجنة، حليف الأنصار، من خواصّ أصحاب النبي ﷺ" وقال عنه النوويّ: "وهو من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ﷺ وكان اسمه في الجاهلية حصينا، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، أسلم أول قدوم رسول الله ﷺ المدينة".

بعد وصول النبي ﷺ المدينة مهاجرا من مكة، كان الأنصار يتطلعون إلى استضافته، وكلما مر على أحدهم دعاه للنزول عنده، فكان ﷺ يقول لهم: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبركت على باب أبي أيوب الأنصاري ﷺ في مكان المسجد النبوي الذي هو فيه الآن .. ثم أخذت الوفود تتوافد على رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب، وقد تنادى الناس فيما بينهم: قدْ قدِم رسول الله، قد قدم رسول الله ﷺ

في سنن ابن ماجه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»

قال السندي: "عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب" لما لاح عليه من سواطع أنوار النبوة، وإذا كان أهل الصلاح والصلاة في الليل يُعْرَفون بوجوههم، فكيف هو وهو سيدهم ﷺ

وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك ﷺ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ، بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟، وَمَا بَالُ الوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟، قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا» قَالَ ابْنُ سَلاَمٍ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ، وَأَمَّا الوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ =

=

الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَ» قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي، قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِي، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، «فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ»، فَقَالُوا: مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَتَنَقَّصُوهُ، قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ

لقد كان اليهود يؤذون من آمن من أحبارهم، ويثيرون حوله الشكوك، ويقذفونه بتهم باطلة قبيحة، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه الوسيلة الخبيثة، ودافع عن هؤلاء المؤمنين الذين وجه اليهود ضدهم تلك الحملات الظالمة، والذي كان منهم عبد الله بن سلام، قال الله تعالى {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١١٣ - ١١٥] قال الواحدي في أسباب النزول: "قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن أسعد، وأسيد بن سعنة، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خنتم حين استبدلتم بدينكم دينا غيره، فأنزل الله تعالى {لَيْسُوا سَوَاءً} [آل عمران: ١١٣]

وفي قصة إسلام عبد الله بن سلام ﷺ يظهر لنا أن اليهود قوم بُهْت، أي أهل إفك وكذب، يقولون ويفترون على غيرهم ما ليس فيه، وهذا يؤخذ من قول أحد علمائهم وأحبارهم ـــ وهو عبد الله بن سلام ـــ بعد أن شرح الله صدره للإسلام فقال: "يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهت" ومن بهتانهم: أنهم كذبوا على الله فوصفوه بما لا يليق، قال الله تعالى {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ

=

=

وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران: ١٨١] وقال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا } [المائدة: ٦٤] وقال تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [التوبة: ٣٠]

مروياته في التفسير قليلة جدا، ومنها:

- (أن عزيرا هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه) رواه ابن عساكر.
- { وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} [المؤمنون: ٥٠] (قال: هي دمشق) رواه الثعلبي وابن عساكر.

وروى عنه في التفسير: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والحسن البصري، وعطاء بن يسار، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وبشر بن شغاف، وابنه يوسف بن عبد الله بن سلام، وحفيده محمد، وحفيده حمزة، وسيف السدوسي، وشهر بن حوشب.

من الدروس المستفادة من دراسة سيرته:

- أن الكتب السماوية من مشكاة واحدة، وأن ما وافق ماجاءنا في الكتاب قبلناه.
- وأن اليهود قوم بهت ليس لهم وعد ولا ميثاق.
- وأن خيارنا في الجاهلية خيارنا في الإسلام إذا فقهوا كما قال رسول الله ﷺ

الضمير [1]

الضمير:

لغة: من الضُّمُور وهو الهُزَال لقلة حروفه، أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كني به عن الظاهر اختصارا، وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتهما [2]

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ} [غافر: ٤٤]

الثاني: ما وضع للمخاطب مثل: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلالة الحضور عنه.

والدال على الغائب، ما وضع للغائب، ولابد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع أن يكون سابقا على الضمير لفظا ورتبة مطابقا له لفظا ومعنى: مثل: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ} [هود: ٤٥] ١

١- أَلَّفَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي بَيَانِ الضَّمَائِرِ الْوَاقِعَةِ فِي الْقُرْآنِ مُجَلَّدَيْنِ، وَأَصْلُ وَضْعِ الضَّمِيرِ لِلِاخْتِصَارِ، وَلِهَذَا قَامَ قَوْلُهُ: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الْأَحْزَاب: ٣٥] مَقَامَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ كَلِمَةً لَوْ أَتَى بِهَا مُظْهَرَةً، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [النُّور: ٣١] قَالَ: مَكِّيٌّ: لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ آيَةٌ اشْتَمَلَتْ عَلَى ضَمَائِرَ أَكْثَرَ مِنْهَا، فَإِنَّ فِيهَا خَمْسَةً وَعِشْرِينَ ضَمِيرًا.

٢- يعني: لا نقول "حضر" إنه ضمير ولا "غاب" إنه ضمير لأن دلالة حضر على الحضور من المادة، ودلالة غاب على الغيبة من المادة أيضا.

فما لذي غيبة او حضورِ كأنتَ وهوَ سمٌ بالضَمِيرِ

وقد يكون مفهوما من مادة الفعل السابق، مثل {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: ٨] ٢

وقد يسبق لفظا لا رتبة: ٣ مثل: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ} [البقرة: ١٢٤] ٤

وقد يسبق رتبة لا لفظا: ٥ مثل: (حمل كتابه الطالب) ٦

وقد يكون مفهوما من السياق: مثل: {وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ} [النساء: ١١] فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: (مِمَّا تَرَكَ).

١- قال تعالى {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ} [هود: ٤٥] نُوحٌ: مفرد مذكر، رَبَّهُ: ضمير مفرد مذكر، الفاعل مقدم في الرتبة على غيره، ونحو: قوله تعالى {إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} [النور: ٤٠]

٢- أين المرجع؟ المرجع هو العدل المفهوم من كلمة (اعْدِلُوا) فَإِنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْعَدْلِ الْمُتَضَمِّنِ لَهُ (اعْدِلُوا) ونحو: قوله تعالى {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} [النساء: ٨] أَيْ: الْمَقْسُومَ، لِدَلَالَةِ الْقِسْمَةِ عَلَيْهِ.

٣- أي المرجع يسبق الضمير لفظا لا رتبة.

٤- الهاء عائدة على إبراهيم، وإبراهيم متقدم لفظا لا رتبة لأن المفعول به يكون بعد الفاعل، ونَحْو {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} [طه: ٦٧]، {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [الْقَصَص: ٧٨]، {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرَّحْمَن: ٣٩].

٥- أي: المرجع يسبق الضمير رتبة لا لفظا.

٦- الهاء عائدة على الطالب، والطالب متقدم رتبة لا لفظا، لأن الفاعل يكون قبل المفعول به.

وقد لا يطابق الضمير معنى: مثل: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً} [المؤمنون: ١٢، ١٣] فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ، لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول ١

وإذا كان المرجع صالحا للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما، مثل: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: ١١] ٢

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت، مثل: { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: ٥ - ١٠] فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شَدِيد الْقُوَى وهو جبريل ٣

١- إذا قلتم: مطابق فمعناه أن آدم تحول إلى نطفة، وصار في بطن الأمهات، وهذا لا يستقيم، إذن: "جعلناه": أي الإنسان فعاد إلى اللفظ لا إلى المعنى.

٢- "وَمَنْ": لفظها مفرد، ومعناها جمع، فـ "من": شرطية تصلح لواحد ولجماعة، **"يُدْخِلْهُ":** الضمير عاد إلى من باعتبار المفرد، **"خَالِدِينَ":** باعتبار الجمع، **"رِزْقًا":** عادت مرة ثانية إلى المفرد، وهذا يعلم من السياق.

٣- الْأَصْلُ تَوَافُقُ الضَّمَائِرِ فِي الْمَرْجِعِ حَذَرًا مِنَ التَّشْتِيتِ، وَلِهَذَا لَمَّا حَوَّرَ بَعْضُهُمْ فِي: {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ} [طه: ٣٩] أَنَّ الضَّمِيرَ فِي الثَّانِي: لِلتَّابُوتِ، وَفِي الْأَوَّلِ: لِمُوسَى عَابَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَجَعَلَهُ تَنَافُرًا مُخْرِجًا لِلْقُرْآنِ عَنْ إِعْجَازِهِ، فَقَالَ: وَالضَّمَائِرُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى مُوسَى، وَرُجُوعُ بَعْضِهَا إِلَيْهِ وَبَعْضُهَا إِلَى التَّابُوتِ فِيهِ هُجْنَةٌ؛ لِمَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ تَنَافُرِ النَّظْمِ الَّذِي هُوَ أُمُّ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَمُرَاعَاتُهُ أَهَمُّ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُفَسِّرِ.

وَقَالَ فِي: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الْفَتْح: ٩] الضَّمَائِرُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْمُرَادُ بِتَعْزِيرِهِ تَعْزِيرُ دِينِهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ فَرَّقَ الضَّمَائِرَ فَقَدْ أَبْعَدَ.

والأَصْلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه:

مثال أول: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} [الإسراء: ٢]

ومثال الثاني {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } [إبراهيم: ٣٤] ١

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

١- قال تعالى {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم: ٣٤] الهاء تعود على نعمة الله، والدليل التأنيث.

وَقَدْ يَعُودُ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ، نَحْوَ: {إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غَافِرٍ: ٣٧]

وَاخْتُلِفَ فِي {أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [الْأَنْعَام: ١٤٥]، فَمِنْهُمْ مَنْ أَعَادَهُ عَلَى الْمُضَافِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعَادَهُ إِلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

الإظهار في موقع الإضمار

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير في قوله تعالى {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥] عن عشرين كلمة المذكورة قبله ١ وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى

(الإظهار في موضع الإضمار)

وله فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق منها:

١- الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢- بيان علة الحكم.

٣- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك: قوله تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨] ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهار:

١- الحكم بالكفر على من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل.

٢- إن الله عدو لهم بكفرهم.

٣- إن كل كافر الله عدو له.

١- قال تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥]

مثال آخر: قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف: ١٧٠] ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم، وأفاد ثلاثة أمور:

١- الحكم بالإصلاح للذين يُمَسِّكُونَ الكتاب، ويقيمون الصلاة.

٢- إن الله أجرهم لإصلاحهم.

٣- أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأوهم أن يكون المراد بطانة المسلمين [١]

١- **قاعدة:** إذا خيف الالتباس وجب أن يحول الكلام إلى ما ليس فيه التباس.

ضمير الفصل

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كان معرفتين ١

ويكون بضمير المتكلم: كقوله تعالى: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} [طه: ١٤] وقوله {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} [الصافات: ١٦٥]

وبضمير المخاطب: كقوله تعالى: {كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} [المائدة: ١١٧]

وضمير الغائب: كقوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ٥]

وَلَهُ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: زيد هو أخوك أوكد من قولك: زيد أخوك ١

١- شروط ضمير الفصل أربعة، هي:

١- أن يقع بين المبتدأ والخبر، نحو: {الْمُتَّقُونَ هُمُ الفائزون، أو يقع بين ما أصلهما المبتدأ والخبر، كاسمي (إنّ، وكان) وخبرهما، نحو: إنّ زيدًا لهو القائمُ، ونحو: كان زيدٌ لهو القائمَ .

٢- أن يكون ما قبله معرفة، وما بعده معرفة، كما في الأمثلة السابقة.

٣- أن يكون ضمير الفصل من ضمائر الرفع.

٤- أنْ يُطابق ما قبله في الغيبة، أو التكلّم، أو الخطاب؛ وفي الإفراد، والتثنية، والجمع؛ وفي التذكير، والتأنيث، نحو قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الْبَقَرَة: ٥]، {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} [الصَّافَّات: ١٦٥]، {كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} [الْمَائِدَة: ١١٧]، {تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا} [الْمُزَّمِّل: ٢٠]، {إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا} [الْكَهْف: ٣٩]، {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [هُود: ٧٨] ونحو قولك: محمدٌ هو المجتهدُ، وفاطمةُ هي المجتهدةُ، والمؤمناتُ هُنَّ الفائزاتُ.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك المجتهد هو الناجح يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

ثالثا: الفصل: أي التمييز بين كون ما بعده خبرا، أو تابعا، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرا، وإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكون الفاضل خبرا، لوجود ضمير الفصل ٢

١- **التَّأْكِيدُ؛** وَلِهَذَا سَمَّاهُ الْكُوفِيُّونَ دِعَامَةً لِأَنَّهُ يُدْعَمُ بِهِ الْكَلَامُ أَيْ: يُقَوَّى وَيُؤَكَّدُ، وَبَنَى عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ: أَنَّهُ لَا يُجْمَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَلَا يُقَالُ: زَيْدٌ نَفْسُهُ هُوَ الْفَاضِلُ.

٢- **ولهذا سمي ضمير فصل:** لأنه يفصل بين الخبر والصفة، فإذا قلت : زيدٌ القائمٌ ، احْتُمِلَ أن يكون (القائمُ) صفة لزيد على اعتبار أنّ الخبر سيأتي ذكره - ويكثر ذلك في الكلام المنطوق - واحْتُمِل أنّ يكون (القائم) خبرًا لزيد، فلما أُتى بضمير الفصل، نحو: زيدٌ هو القائم، تعيّن أن يكون (القائمُ) خبرًا عن زيد، والبصريون هم مَنْ سَمَّوه (ضمير فصل) ومن العلماء من يُسمِّيه (الْفَصْل) كما ذكر الناظم، والكوفيون يسمونه (عِمَادًا) لأنه يُعْتمد عليه في تأدية المعنى المراد.

اختلف العلماء في ضمير الفصل، أحرف هو أم اسم؟

- أكثر العلماء من البصريين على أنه حرف وُضِع على صورة الضمير؛ وبناء على هذا الرأي فلا محلَّ له من الإعراب، قال تعالى: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء: ٤٠] ولو كان له محل من الإعراب لقال هم الغالبون، لكنه ليس له محل من الإعراب.

الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر ١

وله صور منها:

١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: كقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٢ - ٥] فحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله ٢: {إِيَّاكَ} ٣

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: كقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} [يونس: ٢٢] فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله ٤ {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} [يونس: ٢٢] ٥

١- اعتنى المفسرون، خاصة من كان منهم له اهتمام بالجوانب اللغوية، كأبي حيان، والآلوسي، والرازي، وابن عاشور، بإبراز هذا الأسلوب في القرآن، وأبانوا الفوائد واللطائف المبتغاة من وراء هذا الأسلوب، والقارئ لكتب التفسير، لا يعجزه أن يقف على قول المفسرين: "وهذا على سبيل الالتفات"، أو قولهم: "وهذا من باب الالتفات"، أو قولهم: "وهذا على جهة الالتفات".

٢- لو كان الكلام على نسق واحد لقال: إياه.

٣- الفائدة الخاصة هنا: أنك لما أثنيت على الله تعالى بما أثنيت عليه به من كونه رب العالمين، كأنه بهذا الثناء صار حاضرا أمامك فقلت: إياك.

٤- لو كان الكلام على نسق واحد لقال: وجرين بكم.

٥- الفائدة الخاصة هنا: كراهة أن يتصف المخاطبون بما ذكر بعد ذلك {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا =

٣- الالتفات من الغيبة إلى التكلم: كقوله تعالى {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا} [المائدة: ١٢] فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله١ (وَبَعَثْنَا) ٢

٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة: كقوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } [الكوثر: ١ - ٢] فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة في قوله ٣ (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) ٤

للالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى، لأن تغير وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الممل غالبا.

وهذه الفوائد عامة للالتفاتات في جميع صوره ٥

= جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس: ٢٢]

١- لو كان الكلام على نسق واحد لقال: وبعث منهم.

٢- الفائدة الخاصة هنا: إشارة إلى عظمة الله تعالى وأنه سبحانه هو الذي يرسل الرسل، وإن كان هذا سيحدث لو قال: "وبعث"، لكن هذه أبلغ إذ اضافها لنفسه.

٣- لو كان الكلام على نسق واحد لقال: فَصَلِّ لنا.

٤- الفائدة الخاصة هنا: الإشارة إلى أن الله تعالى منحك هذا للربوبية الخاصة بك لأن الكوثر من خصائص الرسول ﷺ

٥- فوائد الالتفات: يقرر أهل اللغة أن لأسلوب (الالتفات) فوائد؛ وذلك أن العرب -كما قال حازم القرطاجني- "يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم، أو =

أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة، حسب ما يقتضيه المقام ١

=

ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، وكذلك أيضاً يغاير المتكلم بضميره، فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه، وتارة يجعله كافاً، فيجعل نفسه مخاطباً، وتارة يجعله هاء، فيقيم نفسه مقام الغائب؛ فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب، وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض".

وقد ذكر الزركشي في "برهانه"، "أن للالتفات فوائد عامة وخاصة:

فمن العامة: التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشيط السامع، واستجلاب صفائه، واتساع مجاري الكلام"، ونقل عن البيانيين قولهم: "إن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال، حَسُنَ تغيير الطريقة" هذه فائدة أسلوب (الالتفات) على وجه العموم.

١- أما فائدته على وجه الخصوص، فتتجلى في أمور:

منها: التنبيه على ما حق الكلام أن يكون وارداً عليه، كقوله تعالى: {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس: ٢٢] أصل الكلام: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم)، ولكنه أبرز الكلام في معرض النصح لنفسه، وهو يريد نصحهم؛ ليتلطف بهم، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، ثم لما انقضى غرضه من ذلك، قال: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [يس: ٢٢] ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقتضياً له.

ومنها: أن يكون الغرض به تتميم معنى مقصود للمتكلم، فيأتي به محافظة على تتميم ما قصد إليه من المعنى المطلوب له، كقوله سبحانه: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الدخان: ٤ - ٦] أصل الكلام: (إنا مرسلين، رحمة منا)، ولكنه وضع الظاهر = (مِنْ رَبِّكَ)، موضع المضمر = (منا)؛ للإنذار بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين.

=

والله أعلم، وصلي الله وسلم على نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين.
تم ولله الحمد رب العالمين.

=

ومنها: قصد المبالغة، كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [يونس: ٢٢] كأنه يذكر لغيرهم حالهم؛ ليتعجب منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح لها، إشارة منه على سبيل المبالغة إلى أن ما يفعلونه بعد النجاة من البغي في الأرض بغير الحق مما يُنكر ويُقبَّح.

ومنها: قصد الدلالة على الاختصاص، كقوله سبحانه: { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} [فاطر: ٩] فإنه لما كان سَوْق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر دالاً على القدرة الإلهية التي لا يقدر عليها غيره، انتقل من لفظ الغيبة إلى التكلم؛ لأنه أدخل في الاختصاص، وأدل عليه.

ومنها: قصد الاهتمام، كقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: ١١ ــ ١٢] فعدل عن الغيبة في (فَقَضَاهُنَّ) (وَأَوْحَى) إلى التكلم في {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا} للاهتمام بالإخبار عن نفسه، فإنه تعالى جعل الكواكب في سماء الدنيا للزينة والحفظ؛ وذلك لأن طائفة اعتقدت في النجوم أنها ليست في سماء الدنيا، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً، فعدل إلى ضمير المتكلم والإخبار عن ذلك؛ لكونه مهماً من مهمات الاعتقاد، ولتكذيب الفرقة المعتقدة بطلانه.

ومنها: قصد التوبيخ، كقوله سبحانه: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} [مريم: ٨٨، ٨٩] فانتقل من ضمير الغائب إلى المخاطب؛ للدلالة على أن قائل مثل قولهم، ينبغي أن يكون موبخاً ومنكراً عليه، ولما أراد توبيخهم على هذا أنجر عنه بالحضور، فقال: {جِئْتُمْ} لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له.

اختبر نفسك ١

١- ما المرجع في تفسير القرآن؟

٢- ما هو سبب جمع القرآن الكريم؟

٣- ما الصفات التي أهلت زيد بن ثابت ﷺ لتولي مهمة الجمع ؟

٤- ما هو السبب في جمع القرآن في عهد عثمان؟

٥- ما الفرق بين جمع ابي بكر وعثمان في الباعث والكيفية؟

٦- عرف الترجمة لغة واصطلاحا مع ذكر نوعي الترجمة وحكم كل نوع؟

٧- من هم المشتهرون بالتفسير من الصحابة؟

٨- ما الصفات التي أهلت زيد بن ثابت ﷺ لتولي مهمة الجمع؟

٩- من هم المشتهرون بالتفسير من التابعين؟

١٠- للالتفات فوائد، اذكرها.

١١- اذكر الفرق بين المحكم والمتشابه مع ذكر التعريف.

١٢- هل تعد آيات الصفات من المتشابه؟

١٣- اذكر أنواع التشابه في القرآن!

١٤- اذكر الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه!

١٥- وضح موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه في القرآن !

١٦- في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ما فهم الجبرية في هذه الآية؟ وكيف تردين عليهم من جهة العلم والشرع؟

١٧- هل يمكن أن يقع تعارض بين آيات القرآن؟ مع ذكر الدليل!

١٨- اذكر صيغ القسم!

١- من وضع صاحب التعليقات.

١٩- اذكر المقسم به في القرآن!

٢٠- عرف القصص لغة واصطلاحا؟

٢١- اذكر صفات قصص القران؟

٢٢- تنقسم قصص القران الى ثلاثة أقسام وضحها؟

٢٣- ما هي الحكم من قصص القران؟

٢٤- ما هي الحكمة من تكرار القصص؟

٢٥- ما معني الاسرائيليات وإلى كم قسم تنقسم أخبارها؟

٢٦- ما موقف العلماء من هذه الإسرائيليات؟

٢٧- كيف تم تسمية سور القرآن الكريم في المصحف؟

٢٨- ما هي خطة عثمان في نسخ المصاحف؟

٢٩- هل ترتيب السور توقيفي أم اجتهادي؟

٣٠- ما هي وسائل الكتابة في عهد النبي ﷺ ؟

٣١- ما سبب تسمية القرآن الكريم بعد جمعه بالمصحف؟

٣٢- ما هي مميزات السور المكية؟

٣٣- لخّص سيرة صحابي ممن قرأ كتب أهل الكتاب، واذكر الفوائد التي استفدتها من دراستك لها:

٣٤- لم يكن جمع القرآن في الصحف بدعة، وضح ذلك.

٣٥- استنتج من سيرة ابن عباس ﷺ الأشياء التي أبرزت شخصيته؟

٣٦- بين طريقة السلف في التعامل مع المحكم والمتشابه، ممثلا.

٣٧- ما هي شروط ضمير الفصل؟

٣٨- من مؤلف الكتب الآتية؟

- جامع البيان عن تأويل القرآن. - أسباب النزول.
- البرهان في علوم القرآن. - مواقع العلوم من مواقع النجوم.

- التحبير في علوم التفسير. - الجامع لأحكام القرآن.
- مفاتيح الغيب. - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.
- فتح القدير. - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.
- أسرار التكرار في القرآن. - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

٣٩- عرف المصطلحات الآتية: القسم - التعارض - أصول التفسير - التفسير - المثاني - المفصَّل - المئون - السورة - المكي والمدني - سبب النزول - ضمير الفصل - الالتفات - الترجمة - الآية - الطوال - الضمير.

٤٠- مثل لما يأتي:

- مثال ما اختلف فيه المعنى الشرعي واللغوي، وقدم المعنى الشرعي
- مثال ما اختلف فيه المعنى الشرعي واللغوي، وقدم المعنى اللغوي
- مثال ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي.
- عموم اللفظ وخصوص السبب.
- الإظهار في موضع الإضمار.
- عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ.
- اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت.
- أدوات المعاني.
- المتهرون بالتفسير من التابعين.

الخاتمة

نصيحة دائما أنصح بها نفسي وكل طالب للحق: إن من الخطأ البيِّن.. أن تظن أنّ الحق لا يغار عليه إلا أنت، ولا يحبه إلا أنت، ولا يدافع عنه إلا أنت، ولا يتبناه إلا أنت، ولا يخلص له إلا أنت، ومن الجميل، وغاية النبل، والصدق الصادق مع النفس، وقوة الإرادة، وعمق الإخلاص؛ أن تُوقِفَ الحوار إذا وجدْت نفسك قد تغير مسارها ودخلتْ في مسارب اللجج والخصام، ومدخولات النوايا.

يا ناظر الخط فاستغفر لمن كتبا فقد كفتك يداه النسخ والتعبا
وقل إذا نظرت عيناك أحرفه يا رب فاغفر له وارزقه ما طلبا
من كل خير وبر أنت تعلمه فأنت أكرم من أعطى ومن وهبا

وقد انتهيت من هذا التعليق في يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر لسنة ثلاث وثلاثين بعد الأربعمائة والألف، الموافق التاسع من شهر يناير لسنة ثنتي عشرة بعد الألفين.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو زلل أو نسيان، فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه براء، وأرجو من كل مطلع على هذه التعليقات أن يتفضل فيدعو لنا بالخير، وأن يزودنا بملاحظاته واستدراكاته، فإن الدين النصيحة، والمؤمنون بخير ما تناصحوا، والله أسأل تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، والحمد لله رب العالمين

الْفَقِيرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ وَرِضْوَانِهِ

أَبُو عُمَرَ / أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ نَبِيلِ بْنِ مُحَمَّدِ شَمْسِ الدِّينِ

المحتويات

العنوان	الصفحة
مُقَدِّمَة	٤
المسألة الأولى: خمس كلمات (قراءة، حفظا، فهما، تدبرا، وعملا)	٦
المسألة الثانية: مقدمة في أصول التفسير	١٣
المسألة الثالثة: التعريف بمؤلف الرسالة	٢٢
مقدمة الرسالة	٢٦
القرآن الكريم	٢٩
١- نزول القرآن	٣٤
٢- أول ما نزل من القرآن	٣٧
٣- نزول القرآن ابتدائي وسببي	٤٠
٤- المكي والمدني	٤٩
ترتيب القرآن	٥٧
٥- كتابة القرآن وجمعه	٦٥
التفسير	٧٥
الاختلاف الوارد في التفسير المأثور	٨٣
ترجمة القرآن	٩٠
المشتهرون بالتفسير من الصحابة	٩٣
المشتهرون بالتفسير من التابعين	٩٨
القرآن محكم ومتشابه	١٠٠
موهم التعارض في القرآن	١١٤
القسم	١١٧
الْقَصَصُ	١٢٠
الإسرائيليات	١٢٥

الضمير	١٣٢
الالتفات	١٤٠
أسئلة عامة على الرسالة	١٤٤
الخاتمة	١٤٧
المحتويات	١٤٨